رواية

مواسم العشق والثورة

دينا عاصم

- الكتاب : **مواسم العشق والثورة**
- المؤلف : **دينا عاصم**
- التصنيف : **رواية**
- يصدر عن

شعلة الإبداع للطباعة والنشر

- المشرف العام

الشاعر الإعلامي / أشرف عزمي

- الإخراج الفني : **أسماء أشرف عزمي**
- ت :

٠٠٢٠١٢٨٠٥٣٤٥٠٢ / ٠٠٢٠١٠٠٩٢٦ ٢٠٠٠

- البريد الإليكترونيّ:

shoaletalebdaa@gmail.com

- رقم الإيداع :**٢٠٢٠/ ٢٢٢١١**
- الترقيم الدولي : **978-977-6681-83 - 5**

حقوق الطبع محفوظة

و يعتبر المؤلف مسئولاً مسئوليةً كاملةً عن كلِّ ما وَرَدَ في الكتاب.

إهداء

إلى أجمل أيام حياتي ، حين كاد الحلم أن يتحقق !

دينا عاصم

في أعماقنا دوما نجد حقيقتنا الخفية ، فقط علينا أن نتحلّى بالصدق أمام أنفسنا .

كان يسبح باستمتاع مندفعا للمدى البعيد يرتفع مع الأمواج ، تهدهده تطبطب على جسده المفتول ، تراوده كامرأة جميلة جامحة وهو منساب معها مستسلم لرغبتها القوية في احتضانه ، حين انقلب الوضع فجأة ليجد نفسه في خضم بحر هائج أعلن عن غضبه دون سابق إنذار، حاول أن يرفع يده ليشير لزوجته على الشاطئ ، نظرت له ببرود ، لم يفهم هدوءها و تجاهلها ، حاول أن يشير إلى الدكتورة ثريا و كانت بجانبها تهمس لها ثم تنظر له بوجه حيادي، ثم تجاهلته هي الأخرى وأكملت حديثها مع زوجته ، و لكن داليا لمحته ، أسرعت تعدو نحو البحر لإنقاذه ، صرخ باسمها : داليا!! ، الح ..صرخت بدورها تنادي أي شخص ليساعدها تلفتت تبحث عن مغيث ، فالتف الناس حولها يتأملونها و ينظرون للذي يصارع الموج في يأس ، الموج كان أسرع ، ابتلعه ، فغامت عيناه وغابت داليا و الشاطئ عن ناظريه ، آخر ما شعر به كان ملوحة الماء في حلقه ، في تلك اللحظات القليلة كان يستعيد عمرا بأكمله ، أباه ، زوجته ، ابنته ، داليا حتى وجوه هؤلاء المرضى الذين نسيَ أسماء معظمهم ، كل تلك الوجوه أطلت عليه و مضوا يبتسمون ، و داليا بعينيها الربانيتين تنظر إليه بحزن ، البيت والعيادة ، المستشفى و الشارع و ميدان ميدان غريب تعثر في مشيته بالقرب منه ،

و مشهد لا يدري أين التقطه عقله و لا متى .. اعتقد أنه يوم الحشر لفرط امتلائه عن آخره بالبشر، لا يفهم .. خيام غريبة تحتل رؤاه في تلك اللحظات التي يصارع فيها القدر .

كل شيء يمرّ وهو في ما يشبه بداية غيبوبة ، لكن عقله و تركيزه

يشتدان فلا يدري هل الموت غفوة أم صحوة إنه يموت لكن عقله حي ، هل هو يصارع إغماءة أو يقاوم إفاقة ، كأنه سيبدأ للتو حياة حقيقية وعيشا حقيقيا كيف يدرك كل هذا في خضم موته .

كيف يختنق بالذكريات المالحة !

هؤلاء الذين وصفوا سكرات الموت بأنها شريط للذكريات يمر أمام المرء في آخر لحظات حياته ، لم يكذبوا .. كان الشريط يمر .. أحداث يعرفها و أخرى لا يعرف متى حدثت له ، صارع الشريط لا يريده أن ينتهي حتى اختنق به ، شهقة أخيرة حين رأى ضوءًا في آخر النفق .. داهمه الضوء .

استيقظ مفزوعا على صوت منبه المحمول الموضوع على " الكومود " بجانب رأسه ، جلس على السرير وهو يزفر مهموما فهذه ليست المرة الأولى لهذا الكابوس المفزع الحلم أو الرؤيا لم يعد يستطيع الجزم بأنه كابوسٌ كان به إحساس موت حقيقي كالذي يقرأ عنه ، يتكرر بنفس تفاصيله في كل مرة يحيره كلغز يطن برأسه يستفز أسئلته ، يوقظ مخاوفه ، إلا أنه في نفس الوقت يغذي حب استطلاعه ، كأنما يتعجل الزمن كي يفسر له ذلك الحلم الكابوس ، أيًّا كان تفسيره يريد أن ينهب الأيام نهبا ليصل لكَنَهِه تنهد وسقط نظره على غرفته كانت كما هي .

التفت بجانبه فوجدها ما زالت نائمة بجواره ، ظل محدقا في وجهها قليلا ، ملامحها منقبضة بشكل غريب ، همس لنفسه : يا ساتر حتى وهي نايمة .

أشعل سيجارة و جلس على كرسيه الهزاز متأملا وظل يدخنها في هدوء و تمهل ، ثم قام إلى حمامه اليومي .

عندما أنهى حمامه الصباحي عاد إلى غرفته ملتفا بمنشفته ، لمحها في مرآة الدولاب تنقلب للجهة الأخرى و تزفر ، تململت في فراشها ثم فتحت عينيها و تمتمت : " قلت لك لما يكون عندك "شيفت" بدري تبات في العيادة" ، ثم أحكمت الغطاء على وجهها و أكملت نومها ، سمع صوتا خارج غرفته ووقع أقدام ، فعلم أن ابنته صحت من نومها، فتح باب غرفته و قرب رأسه خارجها و ناداها لكنها كعادتها لم تستجب من أول مرة ، سمع صوتها يتحدث عبر المحمول و يضحك ، ناداها :

" نادين .. اعملي لي نسكافيه لو سمحتِ الدنيا برد أوي " .

كانت فتاة مليحة تشبه أباها لحد كبير ، سمراء ذات شعر فاحم ناعم وملامح مستقيمة وقوام فاره، في مقبل حياتها الجامعية تلك التي ردت عليه متبرمة بنفاد صبر : حاضر يا بابا ... بس لو سمحت شوف حل في الشغالة اللي طفشت دي لازم نشوف غيرها في أسرع وقت كل شوية واحدة تيجي و تمشي .

تجاهل النبرة وكان قد أكمل ارتداء ملابسه ثم نزل درجات السلم الأنيق التي تنتهي لبهو أكثر أناقة يساعد على الاسترخاء و التفكير و قبل أن يصل لنهاية الدرج سمع صوتها يأتي من أعلى تقول : يا أخي أغلق الباب وراءك شيء مقلق ، لم يعلق ، جلس على أريكة وثيرة تطل على الحديقة الصغيرة المقابلة لصالة شتوية مشمسة تعلقت عيناه بها، بدالية عنب صغيرة يحبها كثيرا...ابتسم لأنها تذكره بدواليا، بدقة تكوينها و قوامها اللدن و ذلك الشعاع الدافيء الذي تصوبه بعينيها نحوه حين ينظر إليها. أفاق من خيال داليا على كوب النسكافيه وضعته الفتاة بشيء من جلاء

الصبر فأصدر صوتا وهو يرتطم بالمائدة الرخامية ذات النقوش الإغريقية .. صوت الارتطام أعاده لدنيا الواقع .

بلا اكتراث و ببرود قالت :

بابا محتاجة " فلوس "

تساءل : كم ؟

- ثلاثمائة أو أربعمائة أريد شراء بعض الملازم .

- و لكنك أخذتِ مثلهم الأسبوع الماضي ..

عاجلته : و أنا ما دخلي و طلباتهم لا تنتهي ...

أخرج محفظته و أعطاها المبلغ مستسلما فتابعت :

و ماما أمس أخبرتني أن أبلغك موعد قسط فيللا الساحل فاترك القسط لها وهى ستذهب لسداده ، هز رأسه قائلا : حاضر عندما أعود سأسحب المبلغ من البنك فليس معي الآن ما يكفى ، هتفت :

خلاص اترك الفيزا هكذا طلبت ماما أمس ..

أسرع واقفا و ألقى بطاقة " فيزا " على المنضدة ثم أردف بتبرم " ماتسحب من حسابها مؤقتا ماهو أنا برضه اللى باحطهولها " ثم أسرع نحو الباب قبل أن تبادره بطلب آخر قائلا " سلام عليكم " ردت البنت ببرود : " سلام " ثم جلست مكانه بهدوء تحتسي النسكافيه الذي لم يلمسه .

" إن أروع ما يمكن أن يهديَه الإنسان لنفسه حديثه لها بكل صدق ، حديث النفس نوع من التطهر "

كان جو ديسمبر باردا يصفع وجهي و الطريق للمستشفى الواقع في منطقة الوجهاء الجديدة - التجمع الخامس - ذي الكومباوندات الراقية و الأسوار العالية ، طويل نسبيا للساكن في مصر الجديدة ، أحكمت إغلاق البالطو و ارتديت نظارتي الشمسية " ماركة جوتشي " التي أتخفى خلفها فلا أطيق أن يحدق شخص بعيني ، أكره أن يقتحمني أحد ، تلك الجرأة التي أظهرها كذبا في عملي وفي علاقاتي لو دقق أحدهم النظر لوجد خلفها ألما وانكسارا مهينا .

أحب ديسمبر وأحب سيارتي ، أكره أن أستعمل عليها سائقا خاصا ، أحب قيادتها ، أصبحت علاقتي بالأشياء أقوى من علاقتي بكثيرين ممن حولي ، التلامس فعل حيوي يقوي العلاقة بين المخلوقات كلها ، حتى لو كانت بين إنسان و جماد، يا ألله ! التلامس الذي أفتقده ، لا أشعر بالحرية إلا حين أركب سيارتي ، حينها أشعر بالسيطرة و أني متحكم بكل شيء فأنا من اختارها و أنا أعلم كل جزء فيها أحيانا أغار عليها من أن يمسها شخص غيري كأنها زوجتي ، من قال إن سيارة الرجل تشبه زوجته كان محقا في بعض أوجه كنت أحبها فعلا كأنها شيء مؤنث في حياتي التي تفتقد الأنثى .

ما أروع أن تسيطر على مسارك !، أشعر أيضا بهذه الحرية حين أكون بغرفة العمليات ، فلا أحد يشاركني مسرحي ، أنا المخرج و المؤلف والبطل ، هذه الغرفة عالمي الذي أنتقي من يشاركونني فيه بعناية لا أحد يفرض عليَّ شخصا لا أريده ، فأختار أطباء مبتدئين لهم مهارة من نوع خاص ليس فقط في مهنتهم ، و إنما في شخصياتهم و مظهرهم

و طريقتهم في الأداء ، حساسيتهم لما أفعله ، التكتم الشديد على كل ما تقوله لهم عيناي خلال العمل ، أسرار معركتي الحربية التي استأمنهم عليها مقابل أن ينهلوا من خبرتي وها هم ضباطي و جنودي يدينون لي بالولاء ، بالتفهم ، لا أكلمهم أبدا فقط نظراتي التي يلتقطونها بخفة و ذكاء كذبذبات بيننا ، نتحرك في صمت ، إلا من صوت خافت لموسيقى شوبان ! شوبان يهذي بالموسيقى يساعدني هذيانه العبقري على التركيز ، يساعدني على الاسترخاء ، أطباء كثيرون يفعلون أشياء غريبة فالبعض يشغل أغاني شعبية .. أقسم أنه ليس هناك أغرب من الأطباء بغرفة العمليات ، كان هناك صديق لي لا يحلو له النقاش السياسي و لا السخرية ممن يخالفونه الرأي إلا في غرفة العمليات و كان هناك طبيب تخدير يحلو له مغازلة المريضات قبيل تعريضهن للتخدير و يضحك كثيرًا من ردود أفعالهن حين يكن ما بين النوم و الصحيان قبيل أن يعمل مفعول المخدر بشكل كامل.

وهناك طبيب آخر يحب أن يغني بصوته أما أنا ! فأشعر أني انفصلت عن عالمي لأصير ملكا متوجا على كل من حولي من أطباء و طبيبات و ممرضات خاصة الممرضات ، أختارهن بعناية كأنهن تماثيل ، مانيكانات أنثرها بالمكان ،يعرفن طباعي ، تتمناني معظمهن أو هكذا يبدو لي ، أو هكذا أحب أن أتوهم ، فلم يعد هناك حد فاصل بين ما أتمناه و ما أراه حولي .

و كعادة غالبية الممرضات حلمهن يتلخص في طبيب ينساق وراء نزوة فيقع في فخ الزواج أو الحب . أتذكر غادة تلك الممرضة الأنيقة و أذكر

نظراتها لي وهي تتجول معي بين المرضى ، أشفق عليها من شخص مثلي مهتز و مغرور، كما أذكر هذا الحب الذي اشتعل بين عماد المريض و نجاة الممرضة التي ظلت ترافقه حتى انتهيا بزواج سعيد ، و الكثيرات الكثيرات منهن يعرفن الأسرار الشخصية للمرضى ، فلطالما سمعوهم يهذون أو سمعوا أقاربهم يتشاجرون أو يتناقشون ، و يعرفن أوجاع الناس التي من الممكن أن تنتقل إليهن بشكل غامض ، فيهربن منها حين تستعر فيهن حمّى الحصول على رجل ناجح و مؤلم و سادي كالطبيب ، نعم فمعظمنا نحن الأطباء ساديون .

أصير على كل هؤلاء ملكا كما أصير ملكا على جسد ضعيف استسلم لمشرطي وكله ثقة بيدي ، و يكون هاجسي الأول ألا أخذله ، أن يستمر انبهاره و استسلامه لي حتى بعد نجاح العملية خذلت نفسي مرة و لا أريد أن أخذل أي شخص آخر، لن أستطيع أن أغفر لنفسي . فالآن فقط أعرف كيف الله يرحم و يعفو و يحمي ، إنه استسلامنا له ، معرفته التامة بقدرته على فعل ما يريد بنا ، رغبته في ألا يخذلنا ، ثقته بقوته مقابل ضعفنا تلك التي تولد الرحمة و الكبرياء و الاعتزاز بما له من قدرة.

رغم أن الشمس لم تسطع ذلك اليوم و الغيوم تغطي وجه السماء و الجو ينذر بسقوط الأمطار لكنني أحب ارتداء النظارة كنت أكلم نفسي طوال الطريق و أنا وحدي و أمام الناس لابد أن أضع سماعة الموبايل ؛ فيعتقد من يراني أني أكلم شخصا ما و الحقيقة أني كنت أكيل أقذع السباب و الشتائم لكل من أراه يستحق و جدير بالسب

كزوجتي مثلا أو و الدها " عمي " ثم أتحول للعتاب المرير لأبي آه يا بابا الله يسامحك و يساعدني أسامحك..

لم أكن في الحقيقة ألوم إلا أبي حين أجبرني على الزواج من ابنة عمي التي كانت تكبرني في السن وذات تعليم متوسط على العكس من باقي أخواتها ، كما أنها أقلهن جمالا ، ما جعلها تنهمك في مشاركة أبيها أعماله و تديرها معه بما لها من عقل مبرمج على الحسابات و الربح و الخسارة حتى أنها فضلت أن تخسر أخواتها البنات و أخ وحيد بسبب استيلائها - بشكل قانوني ملتوٍ - على بعض ممتلكات أبيها.

كانت ترى أن هذا حقها و حق أتعابها في الإدارة إلا أن أتعابها أصبحت فاحشة ربوية ، ما أشعل الأحقاد بينها وبين إخوتها لتصبح تركة ثقيلة من الخصومة مع إخوتها و أمها ، التي غضبت - بدورها - من أفعالها أما والدها فكانت تعجبه " رجولتها " ، شبهها الكبير به ، يخشاها لسطوتها ولما اصبحت تملكه من مفاتيح لإمبراطوريته ، و يرفض أفعالها ، لكنه معجب سرّي بما تفعله قد يمثل دور الرافض أمام إخوتها مجرد تمثيل ، فهو يعتقد أن ابنه الذي هجر الطب و اشتغل بالسياحة خائن له ومخيب لآماله وأن بنتيه الأخريين اندمجتا مع زوجيهما وأطفالهما مبكرا لجمالهما اللافت و نسياه في غمرة الحياة ، في حين قبعت هي تساعده و تشقى معه لبناء امبراطوريته و تعضيدها و كان في المقابل يتعذب حين يراني أنا -ابن أخيه – طبيبا ، و ابنه غائب بالأقصر أو أسوان " يخدِّم على السياح " كما يحلو له أن يتهكم عليه ، فارتمي بين أحضان ابنته البكر " راجية " زوجتي.

كان يراها فعلا رجاءه ، الكل عاداها و لو ضمنيا ، إلا أن أحدا لم يستطع الوقوف في وجه نهمها للمال ، حتى أباها ، صفعته ريحها و جرفته أمواج جشعها فكنست في طريقها كل شيء ثم رمته على شاطئ الشيخوخة منزويا في داره بعد عمر طويل قضاه يعلمها فنون و أسرار عالم " البيزنس " لتنحيه بعيدا عن إدارة أعماله و تلقي لإخوتها بالفتات. كانت تنتقم من أخوتها ، ترى أنهم أخذوا حقهم جمالا وعلما وحتى أزواجهم كانوا رائعين ، أما هي فلم تأخذ إلا بعض العقارات والشركات ، و كما بدا فإن أباها أقسم على نفسه وقتها ألا يجعلها أقل منهن ، فاختارني لها مستخدما كل وسائل الترغيب لأبي الله يرحمه .

و ربما في أعماقه أراد أن يسرقني من أبي و أن يعوّض خسارته المزعومة في ابنه ، كما كان يريد لراجية أن تكون الأفضل في كل شيء ، كأنه يعتذر لها عن شبهها به و كأنه مسؤول عما حل بروحها المسكونة بالعنكبوت كبيت مهمل فارغ هجره سكانه ، وعقلها المسكون بالأرقام المتوحشة ، وأبي .. كان طامعا.. لم يهتم لتوسلاتي ، هددني بالحرمان من مصاريف الجامعة و الميراث إن رفضت ، بكيت و أنا أراه يقهرني كفتاة لا حول لها ولا قوة وأنا الرجل، كان تعلقي بحلمي أن أكون طبيبا جراحا هو كل ما يربطني بتلك الحياة ، أن أسافر لتحضير الدكتوراه في لندن و لندن بصفة خاصة لأحصل على الزمالة ، هددني أن ينهار كل هذا برفضي للزيجة التي كان يراها صفقة مربحة تماما للطرفين ، فخضعت لرغبته و نزلت على حلمه و تخليت عن جزء لا بأس به من رجولتي بالزواج مكرها ... و لربما طمعت أنا الآخر و استسهلت الطريق ، فما كان أيسر

تصميمي على عدم الزج بقلبي و جسدي في منافسة قديمة بين أخوين .
نعم كلما تذكرت دموعي المهينة خجلت من نفسي ، أشفقت على معنى لفظة رجولة مما فعلته بها ، و مما رضخت له ، الرجل أيضا يبيع جسده و يستعمله ، يا للقرف !، أرى ما فعلته لا يقل عن الخطيئة ، أراه إثما يؤلمني .
و الخطايا ...! لم أدر مدى تشويهها لنفس الإنسان ، خاصة إذا مارسها في سن صغيرة ، سن تحدث فيه تشوهات للروح ، تحفر أخاديدا مظلمة داخل ثناياها حتى لو كانت تلك الخطايا ، تحت ضغط خارجي أو طمع داخلي - حال افترضنا أن الطمع عذر مقبول لآثامنا - نعم كان زواجي منها خطيئة أكفر عنها كل يوم و تتفنن هي في تكفير سيئاتي بمهارة منقطعة النظير .
إن إغراء و الدي بالمال و الثروة كان قويا ، كما كان تهديده جديا خاصة أنه لم يكن يرى تعارضا بين حلمي كطبيب و حلمه كملياردير، و كما كان عمي يريد أن يسرق من أبي ابنه الطبيب الوسيم الذي ورث وسامته عنه ، أراد أبي أن يسلب أخاه ابنته الكنز، هكذا اعتقدا وهكذا وقعتُ في شرك الزواج من راجية.
لا أحد يدرك حجم خطيئتي بزواج بُنِيَ على طمع سواي ، لا أحد كان معي في فراشي و أنا أعاشر امرأة على غير رغبتي أعاشرها و أنا مغمض القلب مفتوح العينين لأرى بشاعتي بلا رتوش بلا مواربة ، الإيلام هو فاتورة عادلة يجب أن أدفعها .. أنام معها لأنال ما معها ، ما هذا

الغثيان الذي يؤلم معدتي و يعضها كلما تذكرت محاولاتي لإيقاظ الإحساس الميت بداخلها !.

حتى و أنا معها في أدق أوقاتنا – و ما أندرها ! - كنت أجاهد نفسي خوفا من رأس والدي التي قد تتلصص علينا لتتأكد أني أقوم بكل ما عليَّ من واجبات في عقد أجبرني على توقيعه بالترغيب و الترهيب ، حتى لو كان هذا عقدا رسميا ، الرسميات لا تغير خطايانا لا تعطيها شرعية ، إنها فقط تقننها ، بل إن كل ما حدث في هذا العالم من فظائع و جرائم ، كانت لها عقود و معاهدات تقننها ، لكنها أبدا لم تفلح في إلباسها شرعية حقيقية .

تلك الراحة التي تمنحها لنا ضمائرنا و ليس أوراقا اخترعناها و كتبناها لتناسب أطماعنا الخفية وتقينا شر احتقار المجتمع ، لكن ما فائدة الاحترام الذي أقابل به أمام احتقاري لنفسي و معرفتي بخبيئتها .

التقطني أبوها و أنا ما زلت طبيب امتياز لم أكمل الثالثة و العشرين و هي كانت تكبرني بخمسة أعوام و في واقع الأمر ليس هذا ما نفّرني منها ، ما العمر أمام امرأة محبة مبهرة فائقة الحنان ، ما العمر ! و ما بيننا كان فكرة ، مجرد فكرة الإجبار على أي شيء كانت تثير نفوري ، فكرة موافقتي كأني بهيمة باعها أبي في السوق ، أورثتني شعورا كريها تجاه نفسي و تجاهها .

و هي .. ! هي لم تفعل ما يجعلني أحبها ، كان من الممكن جدا أن أحبها ، كان من الممكن حين سافرت لإنجلترا أن تسافر معي بصفة دائمة ، لكنها فضلت البقاء في مصر بجانب ثروتها .

كانت تزورني في لندن من حين لآخر، تزورني و بالأحرى تزور شركاءها وتدير أموالها في لندن ، تزورني كمريض ممسوس بداء الطب ، إلا أن هذا المرض كان يشبع فيها نقصها أمام أخواتها فتركتني أكمل دراساتي رافضة أن ترافقني هناك بحجة أن لا أحد يدير إمبراطورية أبيها التي أصبحت مطمعا لأزواج أخواتها البنات وزوجة أخيها " الدُهُلّ " كما كانت تدعوه بكل فجاجة .

لم تخش أن تلتقطني شقراء إنجليزية أو سمراء مصرية في المهجر، كانت تعرف أنه لا يوجد نصب عيني سوى دراستي و حلمي الأكبر و الأهم ، و قد كنت كذلك بالفعل ، راجية تفهمني جيدا ، تفهم كل من حولها ، لها عقلية إبليسية تخترق نوايا الناس ، خبرتها في عالم البيزنس أهّلتها إلى تقدير و وزن كل شخص أمامها ومعرفة أبعاده ، ما يفعله و ما لا يستطيع فعله ، نظرة التاجر الذي يفهم " الزبون "، لكنني افتقدت الدفء في هذا البلد البعيد ، قتلني صقيع لندن و مشاعر وحدتي و ألمي من زيجة فاترة خاسرة ، فانكفأت على دراساتي حتى أنهيتها بوقت قياسي ، وعدت إلى مصر يسبقني شوقي لكل شيء حتى راجية ، نعم حتى راجية ، كان شوقي فياضا حتى غمر مصر بكل ما فيها و من فيها شوقي لشوارعها و مقاهيها و الباعة و المارة ، اشتقت لعربة الفول التي كنت آخذ منها فطوري الصباحي وقت كنا مازلنا في حي وسط البلد القديم ، قبل أن ننتقل لمصر الجديدة ، و للعم إسماعيل الذي كان يبيع الذرة على الكورنيش بحي المنيل بالقرب من طب قصر العيني حيث درست ، و للفتيات اللائي يبعن الورود للمحبين عند أبواب المدارس في فصل

الربيع ، تبسمت و أنا أتذكر كيف كنَّ يطاردن الشباب بالورود و يحرجنهم أمام حبيباتهم .

عدت إليها و كنت أمني نفسي أحيانا أن يذوب الجليد بيني و بينها ، أريد أن أحيا حياة طبيعية بعيدة عن شبح الإجبار و الترغيب و الترهيب .

و كنت بالفعل مؤهلا لأي لمسة حانية في تلك السن ، لمسة تنسيني ما فعله أبوها و أبي و لم يكن قلبي قد انشغل بغيرها قبلا ، كنت أرضا خصبة يكفيها بذرة محبة و قطرة ماء ليزهر الحب فيها ، لكنها كانت ضنينة شحيحة العواطف كريح عبوس تقتلع الزرع و تهلكه ، قاسية باردة غير مقبلة عليَّ كزوج ، رغم أنها في الغالب هي من اختارتني ، حاولت أن أسترضيها بالمعاملة الطيبة و لكنها كانت تترجم تلك المعاملة بأنها طمع في شيء ما و بأن وراءها سببا آخر غير الرغبة في فترة هدنة حتى توقفت تماما عن المحاولة .

لم أنتبه للكثير مما يخصها و اكتشفته فيما بعد ، و بحكم معلوماتي كطبيب ، كانت هناك إشارات فيزيائية تجاهلتها ، و ربما ضخّم خيالي البائس تلك المعلومات - لأنها بالتأكيد لا تنطبق على الجميع - إلا أن قوامها الشبيه بثمرة كمثرى مقلوبة أو هرم يقف على رأسه كانت إشارات في علم الـ " جيشتالت " علم تفسير الجسد لمعرفة طباع الناس ، هذه الرأس الكبيرة و الذراعان الرفيعتان و الساق الملتصقة من أعلى و المنفرجة كحرف ثمانية من أسفل تشي بخصوبة شحيحة و متاعب في الحمل و تلك الملامح الحادة تشي بطباع نارية و نوبات غضب منفرة و لا سيما من امرأة ! و كانت تلك الصفات تنطبق على راجية كأنها

نموذج لهذا النمط من الأجساد ، نموذج يستحق أن يتم تشريحه لإفادة البشرية و إثبات نظريات علم الجيشتالت .

لم أكن لها سوى ماكينة فلوس ، ربحا جديدا استطاع أبوها أن يلتقطه لها لتتساوى مع إخوتها ، حتى الطفلة التي أنجبْتها بشق الأنفس وكانت كالملاك ، البنت التي أحببتها حبا جنونيا ، ليس لأنها ابنتي فقط ، بل لأنها كانت أجمل ما حصلت عليه من هذه الزيجة ، قررت أن تجعلها نسخة منها في برودها و طباعها الجافة ، كأنها تمعن في إيلامي و تزيد فداحة خسارتي و لا سيما حينما جاءت البنت تشبهني ، فأحسست ساعتها بأنها حانقة لأني انتصرت عليها بشكل ما ، لذا فلم يهدأ لها بال إلا حين سلبتني إياها .. حتى البنت يا ربي ! سلبتني إياها عاطفيا ، كانت طفلتي المدللة و لكنها مع مرور السنوات صارت تستقطبها بالمال و تستعديها عليَّ لا أدري بماذا ملأت رأسها الجميل إلا أنني استيقظت يوما و لم تكن نادين تحبني كالسابق ، أو مقبلة علي كما كانت ، حاولت استمالتها نحوي مرة أخرى ، إلا أنها كانت دوما تباعد بيني و بينها .

الله يسامحك يا بابا فشلت كل خططك تلك التي اعتقدت أنها ستكون كنزا أصبحت حرب استنزاف ، ربما لتمام معرفتها أن الطمع هو الدافع الوحيد لتلك الزيجة ، فقررت بدلا من اكتساب حبي ، أن تنتقم مني ، الله يرحمك برغم أنني لا أستطيع أن أحملها خطئي فأنا مشترك في جريمتي و بدلا من أن تكون هي سلة المال لأسرتنا أصبحت أنا بقرتها الحلوب و اكتشفت أن مصاريف دراستي بالخارج لم تكن لوجه العلم أو الحب أو أي شيء فلم تكن سوى استثمارٍ لعبقرية طبية مرتقبة ،

تزيد من ممتلكاتها و أموالها و قد كان فها هي تستحلبني بكل ما أوتيت من قوة .

" إن أمْضَىَ ما يمكن أن ينال من الإنسان ليس الغضب بقدر ما هو عدم مقدرته على الصفح عن أقرب الناس ، ألّا تغفر لمن تحب ، ألا تغفر لنفسك ، هذا هو الجحيم بعينه "

أخطأت و لمرة واحدة حين قررت أن أكسر إرادتي لصالح فكرة زائفة ، تلك المرة كبدتني شبابي .
كيف لامرأة واحدة أن تشكل من الكراهية وحشا مخيفا ، وكيف للمحبة التي وجدتها في داليا أن تحيل الوحش إلى إنسان مرة أخرى !
داليا ، هذا الملاك .. سخية في كل شيء ، وهبتها الطبيعة أنوثة حقيقية لا تعيش فقط داخل منحنياتها و استداراتها وزواياها المضيئة ، و لا بين أدغال شعرها الأسود ، إنها تعيش في روحها ، و رائحة الفانيليا المخدرة التي تملا أنفي حين تقترب مني تجعلني أجهل موقعي ، الطبيعة كانت سخية معها ، كما كانت هي سخية معي .
مع مُضِيّ سنوات شبابي و استواء رجولتي عرفت أنه إن كان للأنوثة معنى حقيقيا فهو التسامح و الحنو اللذان زرعهما الله في المرأة كما زرع فيها الرحم .. و من غيرها ليكون رحيما مشفقا عطوفا ، لو كان للاحتواء عضو لكان هو الرحم ليتهن يعرفن قيمة أجسادهن ، هكذا كنت أحدث نفسي.. و ما أطول أحاديثنا !
داليا .. !!.. لعل هذه الرقة وهذا الحنان الغامر الذي يفيض منها طواعية وكأنه نهر جامح هو ما يزيدها جاذبية إنها أروع من أن أصفها " ..." .

ظل غارقا في أفكاره حتى تراءى له الصرح العملاق على الأفق ، كانت المشفى التي يعمل بها ذات بوابة عالية و أعمدة رخامية بلون بيج يتخللها تعريقات فخمة فأغلق الاسطوانة و ضبط " الكرافات " في مرآة السيارة ثم فتح " التابلوه " و أخرج منه عطره المفضل ماركة " جوتشى"

و أغرق نفسه به ، تناول نفسا عميقا تلاه بزفرة طويلة ثم نزل من السيارة متجها إلى المستشفى ، يومئ للحارس بابتسامة حزينة فاترة لكن ، تذكر فجأة لم يكن هذا هو قناعه المعتاد ، لذا فقد تدارك الأمر حيث خلع القهر و ارتدى الخيلاء .

لم يكن يوما متكبرا ولكن شعوره بالقهر أجبره على ارتداء وجه المتكبر القوي بمركزه و وسامته ، درع يتوارى خلفه حزنه العميق و حياته البائسة ، شعر بأعين بعض الممرضات ينهشن وسامته حتى " لبنى " موظفة الاستقبال الجميلة التي تعلمت أن تقتني أجمل العطور من أجله - كما كان يعتقد - فقد كانت كثيرا ما تسأله عن أحب الأنواع إليه ثم يفاجأ بها تقتنيها و تتعمد الاقتراب منه ، تستقبله بابتسامة و غنج قائلة : صباح الخير دكتور عمر ، يقترب من مكتب الاستقبال هامسا بصوت مبحوح و نصف ابتسامة : صباح الخير ، من خلف رأسه كان يرى عينيها تزحف على جسده الفاره وكتفيه العريضتين ، وهو يمضي في طرقات المشفى الأنيق متجها إلى غرفته ، يلمح طبيب التخدير يهمس و يضحك مع إحدى الممرضات و حين اقترب منهما ، عرف أنه كان يقول لها نكتة صباحية تزيل التوتر و تفض الاشتباك بين الهموم الشخصية و بداية يوم عمل ، ابتسم لهما و أكمل سيره حتى بدأ يتهدج صدره وهو يقترب من حجرة الأطباء ويشعر أنها هناك " دالية الحسن التي هبطت على المستشفى " لا يدرى كيف تسللت إلى قلبه من دون عناء و لا يعلم السبب ، أمسك بمقبض الباب محاولا الاحتفاظ بهدوء أعصابه ثم دلف داخل الغرفة فرآها جالسة على مكتبها في زاوية الغرفة بجوار

النافذة المطلة على حديقة المشفى غارقة في أوراق أمامها وعلى مكتب ليس ببعيد عن مكتبها يجلس الدكتور إحسان الذي بدا منشغلا بـ " جيم بلايستيشن " على هاتفه المحمول ألقى عليهم السلام و تبادلوا التحيات و راح كلٌ منهم إلى ما يشغله و جلس على مكتبه المقابل لها و غرق في تأملاته يسأل نفسه لعله يجد الجواب لماذا داليا من بين كل النساء ، لفتت نظره ، و كم كان قبلها يرى نظرات النساء له يتعلقن به ، فيشعر بارتياح ما ، كان يحقد في خبيئة نفسه وغصبا عنه على كل رجل متزوج من امرأة جميلة أو مثقفة أو حتى رقيقة طيبة القلب حلوة اللسان ، يحقد عليه لأنه قد يستمع لكلمات طيبة من زوجته وهو قد حرم من كل كلمة طيبة مطبطبة عليه ، يرى في إعجابهن به عزاءً له وانتقامًا لا يقوم به بنفسه ، انتقام من كل هؤلاء الرجال الذين يهنئون بزوجاتهم.، إلا أنه لم يستجب لأي امرأة حاولت ، مهما حاولت و مهما بلغت درجة جمالها فالهانم أفلحت في " سد نفسه " بشكل ما عن الصنف كله برغم عشقه لهن ، أورثته حبا وعزوفا يتخبط في خيالاته المحمومة معهن ، لكنه محجم منقبض ، كان يخشى قبل داليا أن يهيم بإحداهن فيتزوجها ثم يستيقظ يوما فيرى بجانبه وجه زوجته مرة أخرى ، هكذا كان يضاحك أخاه الذي كان يصغره سنا و يشعر معه بارتياح شديد حينما يفضفض له بمكنون نفسه ، أخبره بذلك عندما يسأله عن الأحوال و يخبره أنها لا تهتم و لا تشعر بتلك المشاعر، بل إنها لا تتجاوب أصلا في أخَصّ أوقاتهما معا ، تعامله بتأفف و سخرية لا

تنبغي لمثلها مع مثله ، مما جعله منكسرا مهزوما كارها لرجولته و لاحتياجه و ضعفه.

كانت لديها من الكفاءة ما جعل رجلا مثله في عنفوان رجولته عازفا عن ممارسة حقه الطبيعي ضائقا مما يشعر به من احتياج ، امرأة،آلية بلا روح و لا طعم ، أضفت شخصيتها المتعجرفة على روحها قتامة وعلى وجهها تعبيرات متجهمة خشنة ، ربما أشعل قلبها بوسامته ، بكل ما لديه و حُرِمت هي منه من جاذبية و قبول ، ربما معرفتها - و هو ليس بخافٍ على كل ذي عقل - أنه تزوجها تحت ضغط ،

فنال هذا منها و لكنها بدلا من أن تجتذبه بروحها ، بادلته عداءً بعداء و نفورًا بنفور و كأن وظيفته كانت فقط أن تنجب منه و تربطه بها برباط لا ينفصم ، رباط يمكنها من أن ترثه !

أهملته قاصدة وهي تعلم جيدا أنها تنال من روحه ، كان يسائل نفسه ، من أين لتلك المرأة متوسطة التعليم أن يكون لها خبرة جلاد سادي يفهم جيدا كيف ينال من روح غريمه لتركيعه و إجباره على الانصياع له .

سخريتها منه على مسمع ومرأى منه ومن ابنته ، كانت مريرة طافحة بالحقد ، تعمدها التهكم عليه أمام الناس و كأنها تثبت لهم أنها المهيمنة على هذا المسخ الجميل و أن ما يعتقدونه هو محض خيال .

أحيانا و في ساعات حقده الأشد عليها كان يلتمس لها العذر ، فقد كانت دائما تشعر بأن هناك شخصا ما في الأفق سيظهر حتما ، امرأة أخرى ستهدم قلاعها يوما ما ، كانت شبه متأكدة بل و تحلم بتلك المرأة ،

لدرجة أنها كانت تستيقظ في بعض الأوقات لتخبره عن امرأة رأتها في حلم تتحادث معه و تهمس إليه بحب ، وصفتها بتفاصيلها كأنها كانت تصف داليا و هي بعلم الغيب ،

و كان يسخر من أحلامها و لكنها كانت جادة و أكيدة ، فاستعدت لهذا اليوم بسلبه كل أمواله إلا قليلا و لم لا ؟! " طمعنجي بنى له بيت فلسنجي سكن له فيه " الله يرحمك يا بابا هكذا يتنهد كلما داهمته الأفكار .

" تستطيع امرأة واحدة أن تعيد ترتيب رجل بكل ما فيه من كراكيب و أن تفض الاشتباك بين جوانحه ، تستطيع أن تهبه رجولة حقيقية "

داليا مفاجأة حلوة لقدر قرر عقابي على رضوخي لأطماع لا تليق برجل ظهرت في وقت كنت آيست فيه من وجود امرأة تستحق حبي و اهتمامي فجميعهن سواء شراهتهن للمال طاغية ، هكذا كنت أحاول أن أتصبر بيني و بين نفسي ، و لكنني كنت أعلم أني أخدع روحي ، لتتقبل الأمر ! كلهن لسن سواء بالتأكيد فالأرواح كالبصمة لا تتكرر و كنت أدري أن العالم مليء بالمباهج و الحب حتى و إن لم أقابله .

هي وحدها نجحت في أن تغير رأيي الذي لا أؤمن به وأعرف فراغه من المصداقية في بنات جنسها دون عناء منها دون حتى أن تلحظ هذا أو تتعمده ، كل النساء اللائي تحلقن حولي كن مبهورات بالمركز ، الوسامة ، الثراء ، إلا داليا.. كنت أراقبها وهي غارقة في صمتها و شرودها أحيانا ضاحكة منطلقة و أحيانا ساهمة و في كل الأحوال تداري عينيها حتى لا يقتحمها أحد ، تشبهني من حيث لا أدري كأنها نسخة مؤنثة من روحي .

حين بدأت العمل في المشفى كانت محط أنظار الجميع جميلة ، ماهرة ، و مطلقة برغم خاتم تضعه في إصبع يدها اليسرى إلا أنه من الصعب ألا ينتشر خبر طلاقها و لا سيما أن زوجها السابق ، كان طبيبا معروفا و عضوا في مجلس الشعب .

و بينما هي منهمكة في كتابة بعض التقارير الطبية أمامي و أنا أتأملها لا أدري هل مر الوقت أم كانت الساعة متوقفة كالتي في بهو المستشفى ، لم أدر كم مر عليّ من الوقت على هذه الحالة ساعة ، ساعتان ، ربما دقائق قليلة ، و أين الدكتور إحسان هل أنهى لعبته التي كانت تشغله !، يبدو أنه خرج دون أن ألحظ هذا ، نظرت إليها مرة أخرى كانت ترفع

خصلات شعرها و تنظر لي معتذرة لا أدري عم ؟ كأنها تعلم أنني منفي بأطراف تلك الخصلات .

لم أكن يوما زائغ العينين كنت و ما زلت حييّا صموتا رغم ما أبديه من خيلاء زائف أعيش رجولتي في أحلامي و أتحمل ضغطا عنيفا لا يتحمله إلا الرهبان .

و كيف لا و في الأربعينيات يصاب الرجل بهوس اسمه العلاقة الجسدية ، ربما أكثر من عشرينياته و ثلاثينياته حين كان يعتقد أنه مازال لديه من الوقت ما يستوعب كل رغباته و أكثر ، حينها يكون مشغولا ببناء نفسه لاهيا عن مسألة المشاعر تلك و هكذا دورة حياة الرجولة ، ففي العشرينيات يكون اللهو و الانغماس في عبث الطفولة و مغامرات المراهقة على أشدهما ، و في الثلاثينيات يغلب على الرجل الزهو، ويسعد بالمعجبات، إلا أنّ وقته لا يسمح له بمزيد من اللهو و لا هو يريد ، فهو مشغول بأطفال صغار و زوجة ما زالت شابة ..!

لكنه ما إن يخطو نحو الأربعين حتى يبدأ في الالتفات لنفسه ، يراجع حساباته ، يعرف أن ما تبقى من العمر لن يساوي ما مضى بل ربما أقل كثيرا ، يشعر أن رجولته كانت تئن تحت وطأة الطموح و دولاب الحياة ، و ها هي تتخفف من أحمالها و تعلن عن وجودها بجنون مع كثير من الخبرة و التمكن صقلتهما الممارسة

و عليه ، فإما أن تشجعه زوجته و تستنزف مشاعره الفوارة في تلك السن ، و تشاركه التخفف من وطأة مسؤوليات البناء وإما يبحث خارج محيط بيته وهو ما يحدث في كثير من الأحيان، و في غيبة وعي لزوجة

لاهية عن رجلها بأطفال تخطّوا سن العناية المتكلفة ، عقلية المرأة المصرية التي تلغي كل شيء ما عدا أطفالها كأن الزوج أصبح تحصيل حاصل و وجوده لا بد منه .

كثيرا ما شغلتني مسألة أزمة منتصف العمر و أنا ... ! لم أكد أسعد بعشرينياتي و لا حتى ثلاثينياتي و انكفأت على خيباتي حتى مشارف الأربعين حتى ظهرت داليا هذا الملاك البريء ، شئ ما يجعلها مختلفة ، أنوثتها طاغية حتى على كلماتها ، على همسها ، و الجميل أن هذا كله دون قصد منها ، هي امرأة رغم أنفها ، مهما التزمت و انضبطت ، أنوثتها تصرخ ، تئن تحت وطأة شيء لا يعرف كنهه ، ربما خبرة سابقة مؤلمة ، ربما كان ذلك أجمل ما فيها .

كل ما فيها ، أنوثتها ، حنانها ، كبرياؤها ، عنادها الذي أحبه ، عباراتها المميزة كأنها بصوتها الضعيف المبحوح و ألفاظها الجزلة التي تشبه مقطوعة نثرية تنم عن ثقافة عميقة ، نوع آخر من النساء خليط عجيب قلّما تحمله امرأة .

- أبتسم لنفسي و أنا أفكر في قدميها المتسقتين بشكل مستفز ، ناعمة بيضاء من غير سوء ، و حتى أصابع تلك القدم لم أرَ أرقّ و لا أكثر تهذيبا و أناقة منها كيف لها أن تفعل هذا بي ، كيف حتى لقدميها أن تؤرقاني في مقارنة مضنية بينها و بين ذلك القنفذ المتخفي تحت الفراش بجانبي و الذي فشلت الثروة في إصلاح عطب روحه كما فشلت في ترميم أنوثتها ، كيف لأنفاسها الخفيفة المعطرة أن تقارن بثقيلة الأنفاس تلك التي تتحول لمِدْخنة منذ الصباح و حتى آخر الليل كرجل

شره للتدخين !

ترفع عينيها فجأة و كأن نظراتي تجلدها ، كأنها ضبطتني أتسلل نحوها فتبتسم و تعاود الانهماك لأعود أتأملها في هدوء .

بعد وقت لا أدري مدته انتهت من التقارير و أغلقت الملف و تراجعت ساندة ظهرها للكرسي و نظرت إليَّ بحب قائلة : " ازيك " كنت أنتظرها أن تنتهي كمن ينتظر الصباح ، كمن يحمل الدنيا على كتفيه وينتظرمن يعينه على وضع أحماله .

كنت أتوق لأحكي لها همومي كعادتي مؤخرا ، و كان لحديثها مفعول كالمخدر ، كتلك الأدوية التي تعالج الاكتئاب و الحزن " زاناكس " من نوع راقٍ بدون أعراض جانبية إلا إدمانه بشراهة ، كان حضورها باذخا قويا ، لذا كان غيابها مؤلما منهكا لقوتي في الاحتمال و يشحن لهفتي بكهرباء من أبراج الفولت العالي التي تتهادى هي عليها برفق و تؤدة فتحطم ما تبقى من احتمالي .

و في حقيقة الأمر لم تكن تحتاج أن تعرف تفاصيل حياتي فمن يعمل بالمشافي خاصة يدرك جيدا أن العناوين العريضة لحياته يعرفها حتى فرد الأمن على باب المشفى و أما باقي التفاصيل فلا يعلم أحد كيف تتسرب لهذا العالم الغريب ، و لكنني اختصصتها مذ ظهرت بأدق التفاصيل .

كانت البداية صداقة عميقة تشبَّثتْ هي بها كثيرا لتكون إطارا لعلاقتنا ، و أتأمتها بثقة شديدة ،

حكت لي خلالها– باقتضاب - كيف تم الطلاق سريعا بينها و بين زوجها

و احتفظت هي بالطفل و تنازلت له عن كل شئ طلبا للخلاص لم تحك - رغم كل هذا - طبيعة و سبب الطلاق و الغريب أن زوجها السابق - الطبيب النائب - يزورها من آن لآخر فيتحدثان ، يتهامسان أرى مرارة على وجهيهما و جمودا على وجهه ، لكنهما غلفا كل هذا باحترام يحسدان عليه يشتعل قلبي غيرة و خوفا ففي كل مرة أستشعر توسله لها كي تعود إليه ، أرى صرامتها على وجهها الحزين ، و أساه يملأ وجهه المتعالي ، مشاعر متشابكة تظهر في عينيه وعينيها أعجزتني عن ترجمة ما بينهما من ماضٍ غامض رغم عناوينه العريضة المعروفة للجميع ، و ما أن يغادر حتى تصاب هي بسكتة تمضي معها لباقي اليوم دون أن أجرؤ على سؤالها عن سبب تلك السكتة ، بل و قد تعتذر في اليوم التالي عن الحضور كأنها في بعض الأحيان لا تتعافى سريعا من بقايا ماضيها .

أندهش لهذا الرقي الذي يغلف كل حياتها و يجبرني في كل موقف أن أقارن مقارنة مفجعة بين تلك الوجبة الباردة - كقرص طعمية بائت - و التي أجبرت على تناولها و بين تلك المرأة الجميلة التي اقتحمتني و انهارت رجولتي أمام سحرها .

مقارنة تقتلني ، أبطالها شخوص غريبة ، رجل و امرأتان ،

إحداهما ما زالت في عصمتي تسومني سوء العذاب ، بينما الأخرى انفصلت عن زوج لانقطاع المودة بينهما ، لكنها أبت أن تقطع الرحمة - رغم هول ما فعله و ما ترفض الإفصاح عنه - فظلت على علاقة طيبة به .

الحب له رائحة قوية ، شذىً نفاذ لا يخطئه أحد و لا سيما أنف خبير

ابتسامة واحدة أو نظرة يلحظها هؤلاء المتلصصون تحكي كل شيء و في مشفانا هذا ليس أكثر من قصص الحب و العلاقات الخاصة السرية.كانت هي بجمالها و وضعها كمطلقة ، المرشحة الأولى و البطلة التي يتمنى الجميع معرفة أي شيء عنها و لا سيما لو علاقة مشوقة برجل متزوج ، كما أنَّ للفضائح أيضا رائحة شهية تجتذب الجميع كلٌ بقَدَر لكن الغموض الذي اكتنفها بما فيه سبب طلاقها جعلها حالة صعبة ، حاولت إخفاء طلاقها في بداية الأمر إلا أن الموضوع تكشَّف بعدما تم الإعلان عن اسم الزوج السابق .

كان ذلك حينما وقعنا في غرام بعضنا البعض ، أول من اكتشف كان مصطفى زميلها و دفعتها أثق أنه أحبها - و لا يزال - حبا عميقا منذ زمالتهما في الجامعة لكنه حب وُئِدَ في مهده و لم يبح به لأحد و لا لها بالطبع ، ليس هناك أسرع من العاشق الغارق لأذنيه في العشق لأنْ يعرف مواضع الخطر على من يحب ، يعرف غريمه حتى قبل أن يعرف الغريم نفسه ، و يتلمسه و يقيس خطورته ، بل و ربما يرشحه للمنافسة على قلب حبيبته اللاهية ، و هكذا عرف مصطفى بحبنا قبل أن نعرف نحن أننا غارقان ، ثم تناثرت الحدوتة ، المطلقة الجميلة و الزوج المحروم ، الطبيب الوسيم و لوليتا المستشفى ، كما يسمونها .

بعدها سرت الشائعات و كانت كالنار التي اندلعت في قلبينا وهجها لم يخف على أحد نظراتي لها فضحتني ، ربما خلال أي اجتماع أو في أي جلسة جماعية و لكن أن تصل الهمسات لمديرة المستشفى الدكتورة " ثريا بنَّه " قبل أن يحدث أي شيء هذا هو الغريب .

ربما تعنت داليا و رفضها للقائي خارج العمل جعلني أكثر شغفا بها ، و ربما لم ألحظ ردود أفعالي تجاهها ، كانت تشعلني بالتزامها ، ذلك الالتزام الذي تعرف من خلاله كيف للأنوثة أن تنطق دون كلام ، بل تصرخ ، إن هذه السيدة الجالسة أمامك منهمكة في تقاريرها صامتة تماما ، تتركك لأفكارك تترمد فيها وهي تتابعك و تقلّبك على نيرانها الهادئة .

المهم أن الإشاعات حولنا وصلت لثريا .

- أرملة ستينية تتشبث بجمال غابر ، مات عنها زوجها منذ سنوات عشر تاركا ابنا هاجر للغرب لسبب غير معلوم ، تزوجت بعده بلواء ضخم متقاعد ، عمل بأحد قطاعات الشرطة ثم تقاعد على خلفية فضيحة تم التكتم عليها ، ثم عمل مديرا للأمن بجامعتها الخاصة ، زواج لم يستمر لشهور ثم انفصلا ، لديها ثروة من الأموال و الشراكة في العديد من مشافي دول الخليج و جامعة خاصة تدرس الطب و الصيدلة وغيره بعشرات الآلاف يدفعها الطلبة الأثرياء .

ثريا كعادة المدراء – لا سيما إن كان امرأة - يحبون معرفة التفاصيل و هي في سبيل ذلك قامت بتعيين " مجاهد " رجل أعمال سري و متخفٍ ، عينته مديرا للإدارة المالية بالمشفى ، عقلية حسابية مخيفة بارع في التعامل مع قضايا الضرائب و موظفي الضرائب و قوانينها و ثغراتها ، بخله و تقتيره جعلوه نموذجا للمليونير المتخفي ، و لكنه أيضا و هذا هو الأهم في موضوعي ، عصفورة تهمس لثريا بكل ما تعرفه سواء في العمل أو أحوال الأطباء و العاملين ، تلك العصفورة شبكة معلومات لكنها

شبكة حية و ليست رقمية كل من بالمشفى بدءًا من الفرّاش لعامل النظافة للمرضى ، كل قسم له فيه أذن وعين في الأقل ، ينقلان له بدقة الهمسة التي تحدث لينقلها بدوره لثريا .

و ثريا منذ أن عملت معها بالمشفى و هي تتابعني بنظرات أعرف مغزاها لا تخفى على رجل مثلي ، فأي رجل يعرف المرأة من نظرتها من مشيتها أمامي ، أستطيع أن أعرف ماذا تريد . إنها تريدني .. لديها من الجرأة و القحة ما لا يليق بمركزها و سنها ربما أورثها الثراء تلك القحة أو الحرمان ، أو ربما القساوة التي عرف بها زوجها الأول والد ابنها و ربما كل هذا مجتمعا خلق منها تلك الشخصية المتجبرة التي تسعى لما تريده مهما كان صعبا و مقيتا !

عمليات التجميل التي قامت بها في فرنسا سرا، من شفط و نفخ و شد جعلتها تشبه مانيكانات المحال بلا روح و لا تعبير أو كممثلات السينما حين يقمن بعمليات الشد و النفخ فيفقدن القدرة على التعبير أو الضحك وأحيانا الكلام بشكل طبيعي ، لا أحد يعرف سنها الحقيقي ، لكن الكل على يقين أنها تخطت الستين بعجل تظهره عروق يديها وفراغ ذراعيها ، نسيت ثريا أنها صاحبة مستشفى تجميلي في المقام الأول ، و أن أي طبيب خبير لديها يستطيع تخمين حتى اسم الطبيب الذي قام بتلك العمليات التجميلية المدهشة ، صارت مسخا بلا معالم حقيقية ، فلكل طبيب بصمته و منطقة تميزه ، و الحق يقال لقد تعاملت مع أمهر الأطباء .

في يوم و بعد أحد الاجتماعات استبقتْني معها ، سألتني :

- مرهق ؟
- ابتسمتُ و أطرقتُ كعادتي أنتظر أن ترمي بكل أوراقها فالاستماع استراتيجية هامة في كل العلاقات .
- لدي اقتراح ما رأيك أن تحضر معي مؤتمر الأطباء العالمي بشرم الشيخ ؟! بضعة أيام ؟ نحضر المؤتمر و نستمتع ، أوكد لك ستستمتع جدا.
- ليتني أستطيع لكنني بالفعل اعتذرت عن الحضور وأبلغت دكتور منصور...
كل الأعذار الكاذبة سقتها إليها عملي بالعيادة ، مواعيد جراحة و ... و ... و .. لم تقنعها ، وجهها كان يقول إني أكذب ، زمت شفتيها و ابتسمت ابتسامة عالم ، تأكدت له الشائعات .
- لا بأس سنرى فرصة أخرى .
مثلها لا يقبل الهزيمة لديها دوما خطة أخرى " بلان بي " لذا أخشى على داليا ،
قلبي يحدثني أنها ستكون جزءًا من الخطة الأخرى .

" كم من حجرات النوم و الأسرّة جمعت بين أعداء بكل ما للكلمة من معنى يا لـه من إحساس مخيف " !

لم أكد أنتهي من الحصار الذي وضعتني فيه ثريا إلا و رأيتني في حصار آخر ، لم أكن أعلم أن كل الجبهات ستنفتح أمامي خلال أيام قليلة فما إن وصلت إلى البيت حتى استقبلتني زوجتي ، التي كانت جالسة على أريكتها البنية المفضلة لديها تنتظرني فاستغربت .

- مساء الخير .

- مساء النور .. حمد الله ع السلامة

- الله يسلمك ... غريبة مستنياني و للا إيه ؟!

- عاوزاك في موضوع .. اتعشيت ؟

- لا

- طيب نتحدث ثم نحضر العشاء .

" جلس مستغربا و هي أمامه هادئة "

- فيه شغالة جديدة جاءت ؟

- أومأت نعم .. ثم صمتت .

- قلقتيني .. خير نادين فيها حاجة ؟

- بالطبع نادين و هل هناك غيرها ، هل تفكر بغيرها ؟

- خيرا ..

- خيرا بكل تأكيد أريدك أن تكتب " لنا " الفيللا هذه .

- فيللا ؟ .. ثم أردف بسخرية اعتقدت أن هناك أمر خطير !

- هو بالفعل موضوع مهم ..

- و لماذا أكتب الفيللا أنا كتبت لكم فيللا المنصورية و العزبة بتاعت الصحراوي و الساحل و شرم و اشتريت لها صيدلية تعمل بها بعد تخرجها ، السيولة كلها معاكِ في شركاتك أنا مش فاهم هو فيه إيه .!

- و إيه الغريب في كده دي بنتك الوحيدة و ده طبيعي أم تريد أن يرثك أخواتك !

- ياه أخواتي ؟ تتوقعين موتي ؟ ثم تابع بسخرية : لكنك أكبر مني بخمسة أعوام فهل تقبلين أن يرث إخوتك أنت ما شقيت أنا في جمعه لو ... لا قدر الله جاء قضا ربنا لك ، قبل أن يوليني شرف الوصول إليّ أنا أولا ؟

تقبلت الضربة الموجعة ، و بانت أظافرها و قامت عن أريكتها وخطت نحو نافذة البهو و اتكأت على المنضدة ثم أدارت وجهها لتعاجلني بأخرى تحت الحزام . بابتسامة صفراء تملأ وجهها قالت : كتبت كل ممتلكاتي لابنتي بيعا و شراء بعقود هي فقط تعرف مكانها و أنت ؟ أيّ أب سيفعل ذلك إلا لو كانت له خطط أخرى .

تحسست البطحة و أنا مهزوم قلت لها باستسلام دعيني أفكر قالت : جيد جدا سأعتبرك فكرت و وافقت .

كان هذا أكبر كثيرا من احتمالي ليوم واحد حاولت إنهاء الليلة سريعا ، و توجهت لغرفة مكتبي ، ربما يغلبني النوم على الأريكة التي أصبحت تعرفني جيدا طالما لن أستطيع هضم النوم بجانب العدو هذه الليلة .

و في اليوم التالي حيث لم استطع النوم ، شمسه مالت للغيوم .. هذا الجو يبعث في نفسي بعضا من الطمأنينة ، ما شجعني فطلبت من داليا أن نتقابل في مكان لاستشارتها في أمر ما .

- يا عمر مينفعش نظهر في مكان عام أنت تعرف ظروفك و ظروفي

- صدقيني لازم نتكلم في أكتر من موضوع إنت متعرفيش اللي حصللي امبارح أرجوكِ مترفضيش .

- طيب اسمع ممكن تيجي تزورنا في البيت ونتكلم .؟

- عادي يعني ؟ أنا محرج .

ضحكت داليا – متخافش مش هنورطك في جوازة أنت زميلي و جاي تكلمني في شغل و ماما وبابا و ابني موجودين متقلقش .

- هل الزواج بك ورطة ؟ يا ريتني أتورط أنت لا تعرفين ما هو شكل الورطة اسأليني أنا .

كنت أستعد لزيارتها و أنا كلي ترقب كمن يريد أن يكتشف كيف سيكون الوضع ، كيف سأقابل والديها و ماذا سأقول كيف سأحكي لها أمامهما كل ما أريد ربما أضطر لأن أحكي عن ثريا لتنتبه - تلك الأفعى سامة .

- كما سأحكي لها عن راجية و ما طلبته مني فهو أمر مريب ما هو السبب وراء هذا الطلب ما الذي أوحى لها به لم يتبق إلا تلك الفيللا وهي كانت بالأساس ملك لوالدي لابد و أن داليا لديها إجابة لأسئلتي

لـديها دومـا إجابـة كأم رؤوم وربمـا .. ربمـا أفاتحهـا في أمـر زواجنـا العمـر يجري و أنا لا أضمن أي شيء .

ابتسم لنفسه في المرآة على ذكر فكرة الزواج منها أعجبته فكرة أن تكون بين يديه كدمية صغيرة جميلة ، أحسن هندامه كأنه بالفعل عريس و انطلق للقائها .

" هناك نساء خلقن لإحداث الفرق في حياة كل مَنْ يقترب منهن ، المشكلة أنهن لا ينتمين لأزمنتهن ، و هنا تكمن الفجوة "

كلما أصختُ السمع سمعت قلبي يُنَهْنِه ، فهو لا يريد أن ينسى ، كان الجرح غائرا و متشعبا كخيوط عنكبوتية طوقتني طالت روحي وجسدي ، لذا أغلقت الباب على قلبي و مشاعري حتى لا تورطني مرة أخرى ، كان هذا حتى رأيت " عمر " ، إنه جميل بالفعل ، برغم رفضي له في البداية و سخريتي من وسامته التي تتحداني و نظراته التي تحاصرني .

ذلك التوق الغريب في عينيه و الذي يبتلع الفضاء من حوله لفرط اشعاعاته يشبه تماثيل آلهة الإغريق بأجسادهم القوية النحاسية و كبريائهم العتيد وغرابة أطوارهم سأعرف هذا فيما بعد ، بعد أن تكتمل قصتي معه لذا فهو يتصرف بغرابة كإله ، يحف نفسه إما بالملائكة أوالشياطين ، جميعهم يدورون بفلكه اصطفى له ملائكة يحبونه ، و ملائكة عمر هن هؤلاء النساء اللاتي يتحلقن حوله في كل مكان يدخله ، و الإله يحب الملائكة ، قربهم منه وأحبهم وأدخلهم جنة قربه ، حبه للملائكة مختلف حب لا يشوبه الحماس لذا فهو حائر يشعر أنه يريد شيئاً آخر ، نوعاً آخر من الحب ، حب قائم على الاختيار فالملائكة مسيرون مجبورون على الطاعة و على الحب و على تقديس الإله ليس لهم في ذلك حيلة لم يختاروا أن يعبدوه بكامل إرادتهم و رغبتهم بل هو خلقهم وجبلهم على ذلك ، و عمر .. ذلك المعبود البائس ، وسامته و رجولته أجبرتهن على ذلك .

عيناه متقدتان بمشاعر حميمة مهما حاول أن يداريها تنطقان فتلتقط أي أنثى إشارة هذا المارد الحائر المعذب ، هكذا كان تحليلي له و تجاهلي لنداء عينيه .

و أنا .. أنا كنت بالنسبة له قلعة غامضة مثيرة ترفضه حاولت أن أبتعد عنه قدر الإمكان ، و هذا ما زاد شغفه بي ، فربما كنت المرأة الوحيدة التي لا تهيم به حبا و تتجنبه فقد استشعرت الخطر منذ وقعت عيني عليه ، و قد علمتني التجربة ألا أصدق ما تراه عيناي ، و ألا أتبع قلبي فقد دفعت ثمن هذا الإعجاب الجارف قبلا .

إحدى عشرة سنة من الوحدة و الألم أورثتني مهارة الفريسة التي تلمح مكامن الخطر فتلوذ بالفرار قبلها .

ابتعدت ، راوغت ، صددت ، لكن دوما كان هناك ما يدفعني نحوه ، قررت أن أطالبه بالاكتفاء بالزمالة و الصداقة نظرا لظروفنا المتشابكة حد التعقيد ، و نظرا لقلبي الذي فوجئت به غارقا في حبه ، ربما منذ اللحظة الأولى مثله ، من منا يعرف بالضبط متى وقع بالحب ؟! لا أحد يدري .. إن المراكب حين تحيطها المياه من كل جانب لا تسأل متى و كيف وصلت إلى هذا العمق ، و لا الطيور تسأل كيف تعلمت الطيران و متى و أين ، لكننا وبعد مضي الوقت نكتشف أنه كان حبا من النظرة الأولى ، لا يوجد أصلا إلا حب النظرة الأولى .

و لكن من قال إني يجب أن أطيع قلبي و من قال إن من حقي أن أحب و أن أعيش حياتي كامرأة ؟ و أي رجل هذا الذي سيقبل بأشلائي .

وهذا الوافد الجديد الذي توغل في أعماقي بهدوء و تؤدة فنالَ منّي ، صار متشعبا بجسدي و روحي تفشى بكياني كأنه مرض ألمَّ بي .

الأغرب أني كنت أرى في عينيه ثقة بأني له ، بأنه يفهم المعركة التي استعرت بين جوانحي ، كأنه يقول لي : " ابعديني كما تشائين سأظل

متوغلا في دمائك ، تحاشي رؤية عيني حتى لا أرى كذبتك الأكبر ، أنا الذي يعرفك أكثر من نفسك أعرف كذبك أعرف أنك بعدي ما عدت صالحة لحياة كالحياة، ابعديني بوهم الصداقة لكنني أعلم أن لا رجلا سواي لامرأة مثلك .

كنت أهرب من عالمي الملتبس الذي لا أتفهمه و لا أستسيغه إلى عوالم أخرى في الكتب أضيع بها و أدخل إلى عمق شخوصها فتضيف مع كل كتاب لعمري أعمارا و لعيني بعدا أعمقْ ، كنت أرى ذلك حين يمعن شخص النظر في عيني فأرى نفسي فيهما ، في عينيه ، أراني بشكل آخر كأنها ليست انعكاسا لصورتي و إنما لروحي أو لشخص آخر متسربل بروحي .

يا إلهي .. كنت أرى فستانا أبيضا له نطاق ذهبي يبرز الصدر و الخصر و عيونا مكتحلة أرى امرأة تشبهني و لا تشبهني كأنني أنا متنكرة بزي لا أدري ، لعله فرعوني .

امرأة لها علاقة بي و لكن يكتنفها غموض يزيدها جمالا عالم علوي تحلق فيه مع من يجاريها وعالم سفلي به من الجن والمردة ما يأسر العقول .

بئر سحيقة تهوي بها مع من ينظر إليها كالنداهة تناديه فلا يملك إلا أن يسير وراءها مأخوذا بدنياها فلا يعود بعدها أبدا ، هكذا كنت أنا أوهي أو كلتانا إلا أنني لم أتعرف إليها بعد . شككت في نفسي و ما يتراءى لي ..

ربما.. ربما كنت بالفعل مريضة عقليا كما حاول هو أن يوهمني في فترة ما ليحكم قبضته علي !

" داخل كل إنسان وحش رابض في أعماقه إما أن يستطيع ترويضه و إما أن ينفك عقاله فيحدث التغيير المفاجئ "

أشعر أن بداخلي مادة خام للتمرد لذا لم أرغب في إطلاقها و لا تشكيلها كانت طفولتي سعيدة ، و لكنها لم تدم طويلا بدايتها كانت قصة حب ، كانت حديث المدينة بل جيل بأكمله كانت بداية قصتي هي بداية قصة أمي .

أمي" رِهام " التي التقت بأبي أستاذ التاريخ بالجامعة وكان هو أستاذها تحابا ،رغم فارق السن بينهما ، تزوجها وهي بعد طالبة بعامها الجامعي الأول مبهورة بعلمه وقاره وحنوه ، عاشت تنهل من حبه وحنانه و خبرته العميقة مرت بضعة سنوات حتى أنجبتني، كان يتوق لبنت تشبهها ، فقد كانت أجمل و أرق فتيات الجامعة ، و كانت هي تتمنى رجلا مثله بوسامته و هدوئه و رصانته و ثقافته اللافتة و غزارة علمه ، رجل أخاذ كما يقولون .

عرفت أمي بعد سنوات من إنجابي أنها تعاني من مرضٍ ما ، لم يستطع الأطباء وقتها تحديده ، و لكن بعد سنوات أخرى عرفنا أنه المرض اللعين الذي أصابها في منطقة نادرة من جسدها الشاب، وحين بلغتُ الحادية عشرة اختطفها الموت سريعا كانت تعلم بمرضها وتكتمه حتى فوجئ الجميع بتدهور مفاجئ في حالتها، اختطفها الموت بعدما أعدتني جيدا لهذا اليوم .

كنا نتحادث طويلا على صغر سني و كانت تحكي لي عن حبها لأبي و توصيني به خيرا ، وكنت أتعجب من وصاياها لماذا توصيني به و هي موجودة ، سؤال عرفت إجابته بعدها ، كانت ترى قصتهما جديرة بالحكي ، تصلح لأن تدرس لو كان للحب جامعة .

و ككل شيء جميل كان عمرها قصيرا ، ربما الجمال يكمن في القليل في الاختصار و التركيز ، ربما كان الإسهاب نوعا من الفشل و الإفلاس ، استغرقت قصتهما قليلا من الوقت و ربما هذا ما كتب لها خلودا في نفوس من عرفهما ربما لو استمر الوقت الجميل لاعتدناه فما عادت له سطوته ولا اشتهيناه .

حين أصرت أمي على الزواج من أبي ، خاف والداها من فارق السن ، خافا أن يموت والدي تاركا خلفه أرملة شابة ذات قلب كسير و مسؤولية كبيرة ، خافا على ابنتهما من موت زوجها ، لكن الموت ذلك المباغت الخائن كان يضحك لمخاوفهم و هو يعلم أنه سيأخذها هي بين أحضانه و هي بعد لم تكمل الخامسة و الثلاثين ويترك الكهل الذي جاوز الخمسين مع طفلة تشبه أمها في كل شيء ، و انطوينا أنا و أبي على بعضنا البعض نرتق جرحا أعمق مما تصورناه .
و اندمج الدي مع كتبه و أبحاثه يكاد لا يفارق مكتبه الذي رتبه بكل عناية واختار منذ زمن بعيد ألوانه البنية المتداخلة مع اللون البيج و كثيرا يكون هائما مترنحا على كرسيه الهزاز يتأمل ويستغرق في تأملاته.
و قد أصبحت مقالاته المترامية ، تشغل جل وقته كانت برغم رمزيتها و ربطها الماضي بالحاضر تقض مضاجع المسؤولين ، دعوات من جامعات عربية و أوروبية أرسلت لعالم التاريخ العروبي المصري ، سلاسته و تنبؤاته السياسية المخيفة جعلت صيته يترامى و لا سيما في الجزائر و تونس و ترجمت كتبه و مقالاته للألمانية و الروسية .

كان ضالعا في تحليل العلاقات و التقسيمات الدولية للمنطقة على أساس طائفي ،

هو أول من تكلم عن إحداث الفوضى في الشرق الأوسط لإعادة ترتيب الأوراق و تقسيم الثروات ، غرق في كل هذا حقا فصرت وحيدة بكل معنى الكلمة برغم سعادتي لأنه وجد ما يسري عنه من أبحاث و مقالات. لذا فقد غرقت أنا الأخرى بالكتب و الروايات و صار لكل منا عالمه ، عالمان متوازيان متشابهان لكنهما لا يلتقيان إلا نادرا أحيانا كنت أشعر أنه يهرب مني حتى لا أذكره بأمي التي أراها دائما تتلألأ في عينيه ، فكنت كلما تقدم بي العمر وقاربت الصبا صرت شبيهة بها أو كأنني هي في زمن آخر و كنت ألمح في عيني أبي حزن الفقد و ألم الفراق كلما أطال النظر لي .

بعد عامين من وفاة أمي فوجئت بجدي لأمي يعرض على والدي الزواج من ابنة أخيه المطلقة العقيم ، لأني - بحسب كلام جدي - كنت أحتاج لأم في تلك السن لا سيما مع انشغالات أبي و أسفاره المتعددة ، و ألمح جدي إلى أن أبي يتقدم في العمر و سيحتاج لمن تعينه ، وافق والدي على مضض خوفا علي من شبح الموت الذي كان ينتظره و يرى أنه - الموت - أخطأ باختياره لأمي و أنه لا بد و أن يصحح خطأه الفادح باختياره للقاء رهام مرة أخرى و لا سيما و قد أضحى كبير السن ، كان لا يتصور امرأة أخرى غير رهام .

كان لا يقول أبدا كلمة أمك كان يتحدث معي عن رهام حبيبته التي يصدف أنها أمي،التي لم تكن يوما إلا حبيبته و ظلت على حالها عنده حتى بعد موتها .

ماجدة ....

بدت متوجسة تتعثر في خجلها و ريفيتها ، حينما جاءت إلى البيت زوجة أبي الجديدة .
لم أكن أكرهها رغم حبي لأمي ، كانت تشبهها ، تشبه أمي ربما ليست بقدر جمالها لكنها تشبهها ، و لا عجب فهي ابنة عمها ، ربما هذا من أسباب موافقة أبي ، إلا أنها كانت أكثر سذاجة بحكم تربيتها الريفية .
وجدت المرأة في الحياة معنا ما حرمت منه بعد زوج كان يسومها سوء العذاب لأنها عاقر ، حتى طلقها و أراد أهلها تزويجها مرة أخرى على غير رغبتها ، فاستنجدت بعمها - جدي - و لجأت لبيته و وجدت في حنو أبي و تلطفه لظروفها المؤلمة عوضا عما رأته ، و وجدت فيَّ فتاة طيبة رؤوم ، لا تكن لها البغضاء كما كانت تتوقع في البداية ، كان شبهها بأمي يريحني نوعا ما ، كما أن اختيار جدي لها ، كان له رمزيته التي التقطتها رغم سني الصغيرة ، كانت تؤلمها كلمة " طنط " و لكني أصررت ، و رضخت هي و بعينيها حزن نبيل .

بعد سنوات قليلة و حين مرضت و سهرت بجانبي لأيام ، فوجئت بكلمة ماما تخرج مني عفوية ، دون أن تطلبها " ماما عاوزة أشرب " ، حين سمعتها، هرعت بكوب يندلق الماء منه و هي تجلس على سريري و جسدها يهتز و ينهنه بهدوء انهمرت دموعها حتى تساقطت مع قطرات الماء المندلق لسماعها الكلمة و بدأ عهد جديد بالنسبة لها عهد الأمومة

المحرومة و التي أخيرا وجدت من يطبطب و يهمس لها و يقدرها بل و .. يستنزفها ..

جعلت تلك العناية التي أولتها ماجدة لأبي ، جعلته أكثر انكبابا على عمله و دراساته فما كان منه إلا أن قرر أن يضيف لمؤلفاته موسوعة تاريخية جديدة عن التقسيمات الجديدة التي تحدث في الوطن العربي في ظل غزو العراق وعن الخطوات المقبلة التي ستتخذها الولايات المتحدة لإكمال مخططاتها التي بدأتها منذ خمسين عاما عن طريق نظرية التفريغ و الإحلال أي إفراغ بعض البقع و الدول الصغيرة المساحة من مواطنيها الحقيقيين لأسباب مختلفة كحروب أهلية و فتن طائفية و نقلهم لدول أخرى مجاورة أو نقلهم إلى أوروبا التي تشيخ بفعل ندرة الإنجاب و العزوف عنه و قلة عدد الشباب في مقابل ارتفاع سن الشيخوخة والاستعانة بتلك الجنسيات المتفرقة في إعادة إحياء الغرب، و تنشيط مجتمعاته الخاملة جنسيا و خلق بقع توتر تستنزف الباقين من الدول الكبرى ذات الكثافات العالية و تقسيمها و تحويلها لدول دينية طائفية بدلا من القومية التي تجمعهم .

موسوعة أصبح حلمه أن ينتهي منها مطعمة بخرائط بيانية تشرح الفكر التوسعي الجديد للولايات المتحدة و تخمن المناطق و الحروب الفكرية التي تشرع في تنفيذها و اتجه بكل و قته لإنهاء تلك الموسوعة التي يراها مكملة لنظرة الدكتور الراحل جمال حمدان ، أستاذه الذي تتلمذ على يده قبيل انطوائه في أيامه الأخيرة و قبل أن يتم اغتياله بشكل غامض ،

ما ترك في أبي حزنا عميقا ربما كان هذا أيضا سببا لشروعه في العمل البحثي الجديد انتقامًا ممن قتلوا الحلم .
أما أنا ، فعنايتها و دفئها معي جعلاني أتفرغ لمستقبلي ، فانكببت على دروسي و كتب أبي و كبرت معها ، ربتني تلك الكتب ، و هذبتني قصص التاريخ وغرقت في الأشعار و الروايات و أمهات الكتب فهنا يجلس مرتاح كالأمير ديوان المتنبي العظيم و هنا يختال زهوا ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي و في الركن يرمقني ديستوفسكي و يأخذ لبي نزار حين يقول " الحبُّ في الأرض بعض من تخيّلنا ** لو لم نجده عليها لاخترعناه " و تولستوي هذا الغريب القريب يهمس بصوته الدافئ بمقولته الشهيرة : " أنت لن تعرف المرأة إلا بعد أن تتأكد أنهم أقفلوا عليك باب قبرك بإحكام ".

كنت أتقلب بين هذا و ذاك عسى أن تداوي ما بها من حكم و قصص ما علق بي من علة الفراق بعد رحيل أمي ، و علها تقبض على مفتاح الروح فتغلقها على ثورتها الغضة إلا أنها لم تفلح أبدا في تهذيب المارد الذي بدأ ينمو في داخلي و يخيفني شخصيا أخاف فتاة أخرى تكبر في أعماقي لا سلطان لي عليها فتاة أراها في عيون الناس لكنها باتت تجلس على طرف سريري تهمس لي ، ترتدي فستانا شفافا لونه أبيض وعقدا من الجعران الأزرق و أساور ذهبية فتاة تشبهني لكنها تكحل عينيها كأميرات الفراعنة لها صدر عال و ساقان مبهرتان تظهران من الفتحة العالية لفستانها تناقشني كأنها خرجت من كتب أبي ، تناقشني كأنني أنا و قد خَرَجْتُ من

رأسي لأجادلني ، ربما كانت و هما لكنها تظهر لي من وقت لآخر أوقات محددة لا أدري سر التوقيت فيها ، لكني أتوقعها فتأتي و أيأس من ظهورها فتظهر .

انطويت على ذاتي أكثر وأكثر لم أنتبه إلا ولي صديقة وحيدة تكبرني بعدة أعوام مجنونة مثلي كما تقول عن نفسها إلا أن روحها منطلقة على عكسي تماما ترتدي حجابا بسيطا لم تدعوني يوما لارتدائه بعكس الكثير من الزميلات في كلية الطب كان الضغط منهن شديدا لإغرائي بارتدائه ولكني كنت اشعر أني بخير وأنه وكعادة تلك الفتيات حاولن كثيرا أن أنضم معهن لتلك الأسر ذات الأسامي الآسرة مثل "ذات الدين" وأسرة "النجاة" و"الاخوات المسلمات" وحين تململت من محاولتهن الدؤوب في فرض السيطرة علي ابتعدن عني وربما ناصبني عداءا صامتا وانغلقن على أنفسهن مرة أخرى حتى امتلأت بهن أروقة الجامعات ولا سيما كليات الطب دون أن يشعر بهن أحد..وانتهى الوضع بإحجام الكثيرين عن المشاركة في كثير من الأنشطة واحيانا إلغائها.!..

وهكذا انتقيت هاجر وانتقتني وكان بيننا زملاء مشتركون ، كانت قوية ومتماسكة و تحبني بدون سبب وجيه كما تقول دوما .. ترى في " نفسا جديرة بالدراسة " خصوصا بعدما تخصصت في الطب النفسي ، و ابتعدت عن الباقين ، حتى زملائي الذين أبدوا إعجابهم بي ، لم أرِقّ لهمساتهم و خصوصا مصطفى ، زميلي بالكلية كان يحبني حبا عنيفا ، عيناه تنطقان تتابعاني حيثما كنت لكنني كنت أضن عليه بمشاعري

المضطرمة و المضطربة داخلي ، خفت أن ألين له فأعطيه أملا كاذبا وهو أطيب من أن يحتمل غدر قلب حائر و أكبر من أن أسايره و قلبي لا يحبه حقيقة .

كنت في عامي قبل الأخير في الجامعة و رأيته يتبختر في المستشفى الجامعي طبيب وسيم أربعيني و لكن مظهره يعطيه شكلا أصغر بعقد كامل قوام فاره و بنية قوية منحوتة برغم فارق السن إلا أن كل ما به راقني ، تعامله معي ، مظهره الجذاب شعيراته البيضاء القليلة التي يعتز بها و .. خطفني بهداياه الرائعة و شغل عقلي و قلبي و هذا ما جعل و الدي يصمت أمام إصراري و تخوفه من فارق السن و تمنى أن أضرب الصفح عن زواجي به لأسباب واضحة ، لكن كل هذا ذاب تماما أمام مظهره الوسيم و اسمه اللامع و طيبته الظاهرة للعيان ، و .. إصراري عليه .

قصة الحب التي كانت بين والديَّ كانت حجتي القوية أمامه ، كأني توسمت أن أعيد سيرتها ، قصتها .

و ظهرت تلك الأنا الأخرى جادلتني كثيرا قالت : إن الحب يختلف عن الإعجاب و أن مجرد الرغبة في تكرار شخص غاب عن حياتنا ، لا تمنحنا صكا بالسعادة خاصمتني كادت تهجم عليّ لتضربني كي أستمع لها .

كانت شديدة الملاحاة ، لكنني تلك المرة أشحت بوجهي عن طرف السرير الذي تجلس عليه فاختفت بين الستائر غاضبة ربما لأطول فترة اختفاء منذ ظهرت لأول مرة .

كان نادر بالفعل نادرا يعدني بمستقبل مغرٍ و سيارة فارهة وحياة شاهقة ، إلى جانب أنه سيساعدني في دراستي فعلاقاته أخطبوطية متشعبة بالطبقة الراقية ، كريمة المجتمع ، هو الطبيب الخاص لعدد لا بأس به من الوزراء ، صديق شخصي للكثيرين ، يؤمه الأهل و الأصدقاء ، طلبا لقضاء حوائجهم كأنه ولي مبارك يتبركون به و يتمسحون بأهل بيته ، حاز العلم و المال و الحظوة لدى أهل الحظوة حتى زواجي ، حضرته شخصيات لم أحلم بالاقتراب منها يوما و انزوى والدي و أمي ماجدة و زمرة من أساتذة الجامعة على مائدة مجهولة في ركن القاعة الباذخة يرافقهم مصطفى بعينين غائمتين و بجانبه أيضا هاجر مبتسمة بتحفظ، ترمق مصطفى بين حين و آخر تقيس مدى عذابه ، جلسوا بعيدا عن باقي المناضد يشاهدون حفل زفافي كأغراب عن الحفل ، بل عن المجتمع برمته وعلى كرسي مزدان بدانتيللا بيضاء و ورود حقيقية حمراء جلست أنا ، كان الكرسي يرقد مستسلما – مثلي - لستائر بيضاء و أرضية عالية من الساتان الأبيض تناثرت عليه و رود حمراء ، وسط هذا الجو الحالم ، لمحت في عيني أبي نظرة فارغة ، فانقبض صدري و تلفت حولي فإذا بأناي ، تجلس بجانبي و قد افترشت بفستانها الأبيض أرضية " الكوشة " التي أجلس بها ، و صارت تعبث بأطرافه لاهية عني كأنها تتجاهلني ثبتّ بصري عليها فرفعت رأسها بنظرة ساخرة ثم انهمكت مرة أخرى في العبث بذيل فستانها ، و كان الزواج الأسطوري .

لا أدري كيف اختارني و كيف اختبرني و عرف شخصيتي و خطط لزواجي منه ، كل ما فعله معي يدل على معرفته العميقة بي .
ربما الشيء الوحيد الذي لم يقدره تماما هو تلك الأنا التي تنسلخ عني فتظهر لي لملاحقتي و مراجعتي و .. تكرهه .
لم يعرف بتلك الرعونة التي أحسها في مشاعري و توقي للحب ، لا ليس ذلك الحب العادي الذي أسمع عنه ، أريد حبا فارقا ليس في حياتي وحسب ، بل في حياة الناس لا أدري كيف لكنني أريده حبا كبيرا ، كانت تطاردني دوما مقولة ليو تولستوي "
الإنسان هو الذي يرى الأشياء كما يريد ، فالأشياء تبدو قبيحة أو جميلة رهنًا بوجهة نظر المتأمل إن ذلك يعني أن الجمال ليس القائم خارج ذات الإنسان ، ولكن الجمال الحقيقي هو الموجود في داخل الروح الانسانية "، كذا تصورت زواجي .
كنت بالفعل من هؤلاء الفتيات عديمات الخبرة و برغم دراستي كطبيبة أسنان لم أكن بالفعل أعرف شيئا عن هذا العالم ، ففي بداية زواجي كنت من السذاجة لدرجة أني لم أعرف المطلوب مني بالضبط، ضحك في ليلة زواجنا و قال لي بسعادة ظهرت جلية في صوته .
- طبيبة و لا تعرفي ميكانيزم العلاقة بين الرجل و المرأة .
- بخجل شديد أنا طبيبة أسنان .
- ضحك أكثر و قال : و هذا رد أكثر سذاجة ، الفلاحة في الغيط تعرف كل شيء منذ نعومة أظافرها ، كل شيء يا دكتورة ، بل إن الفلاحات

يعرفن ما لا تعرفه فتيات المدينة و الجامعة يا للعجب ! ليتني تزوجت فلاحة .

خجلت من نفسي ...

كنت أشعر أن هناك خطبا ما بي ، نعم بي أنا ، فأنا الساذجة التي لا تعرف كيف تسعد زوجها ولا كيف تثير مشاعره وبرغم حدوث الحمل ! كان هناك شيء يجثم على صدري من علاقتي بنادر شيء لا أفهمه لكنني لم أتبين بعد .

مرات فشله ألجمتني و أحرجتني و جعلته ناقما عليّ ، كما جعلتني ناقمة على نفسي و مشفقة عليه ، أشعر أن بي خطبا ما ، فمن المستحيل أن يكون به هو خطب ما .

بعد ميلاد أحمد ابني التهيت تماما و لم أعد ألتفت للموضوع و لكن تكررت المشاحنات بيني و بين نادر و أصبح عصبيا ، و في كل مرة يتهمني بالبرود حتى صرخ مرة في وجهي روحي اتعالجي .

كانت الفكرة كطوق نجاة بالفعل ، لا بد أن أعالج نفسي عار ، علي كطبيبة ألا أعالج نفسي و أتجاهل المشكلة كيف لم أفكر في اللجوء لطبيبة و توجهت بالفعل لصديقتي هاجر ، كنت نسيتها في غمرة زهوة الزواج و الحمل السريع .

هاجر بعد دراستها للطب النفسي ، تخصصت بأمراض الذكورة و العلاقات الزوجية كأن الله صاغها لي، فلا أستطيع أن أبوح بأسرار مخدعي لأحد أبدا طلبا للنصيحة إلا لصديقة بذات التخصص وها هي .. و .. و هاتفتها و طلبت منها موعدا و قابلت مكالمتي بكل حب و شوق

و سريعا ما ذهبت إليها في اليوم التالي و قصصت عليها حكايتي و بدت متعجبة .

قالت لي كيف سكت كل تلك المدة ، عامان مرا عليك و أنت لا تفهمين و لا تلجئين للاستشارة الطبية عيب عليكِ و الله .. على كل حال ما أخبرتني به يؤكد أنك سليمة غاية ما هنالك أن هناك بعض الضعف " من جانبه " و هذا هو الفيصل ، لابد أن يذهب زوجك الطبيب لطبيب لمعالجة الضعف ، أنت سليمة يا صديقتي و كل ما تشكين منه لا علاقة له بك و هو بالتأكيد يعرف ، فليذهب لطبيب من معارفه ليحدد مدى احتياج الحالة لعلاج ،يا إلهي طبيب و يفهم كل شيء و أنت لا تفهمين؟؟ كانت جريئة بحكم تخصصها ، بحكم صداقتنا و بحكم شخصيتها ..

- يعني أنا سليمة ؟ يعني هو الـ.. ، تنفست أنفاسي بصعوبة و أنا أنظر نحو صديقتي بعمق ثم أردفت قائلة : لا جرم في هذا ، العلاج بسيط و متوافر هو سيد العارفين كيف لم يفعل قبل زواجكما ! و أنت يا مسكينة .. أنت امرأة جميلة بائسة وهبلة .. اسمحي لي فنحن أصدقاء ، أنت هبلة و بلا ثقافة جنسية ، رغم بكالوريوس طب الأسنان الذي تحملينه خايبة .. هذا الموضوع هو فن بحد ذاته و أنت لا تجيدين هذا الفن ، و لا تتفننين فيه ماذا أقول لك ... هو صادق .. أنت بلا ثقافة جنسية و إن كان قول حق يراد به باطل .

- ماذا تقصدين يا هاجر قلت إني لست السبب في تدهور العلاقة ، لماذا تراجعت ؟

- لم أتراجع يا بنتي ، اسمحي لي أن أكلمك امرأة لامرأة و ليس صديقة لصديقة و لا طبيبة لطبيبة :

الرجال يا صديقتي لا يقيسون المرأة إلا بمدى إجادتها لتلك العلاقة مهما صدعوا رؤوسنا بالثقافة و التعليم و بلاا بلاا بلاا ..... في الآخر سوف يقيمها من خلال هذا فقط صدقيني لا شيء يحافظ على الزواج مهما كثرت مشاكله و تنوعت إلا علاقة جنسية سعيدة و متوردة زوجة جامحة خلاقة فيما يخص تلك الأمورمهما كنت جميلة ، فالجمال شيء ثانوي في تلك العلاقة .. آه و الله أتكلم علميا بالمناسبة

الرجل يعتاد كل شيء الجمال و القبح على حد سواء ، فلو تزوج الرجل - أي رجل - نانسي عجرم مثلا سيعتادها مع مرور الوقت و يعتاد جمالها فلا يثيره ، و لو تزوج قردة سيعتاد قبحها مع الوقت و تصير عادية ، لن يفرق معه إلا إجادتها لتلك الفنون ، حتى لو قردة فهمتِ ؟ ضحكنا حتى أوجعنا قلبينا .. كانت خفة ظلها دوما تغفر لها جرأتها منذ كنا بالجامعة.

أوصتني هاجر صديقتي ببعض الوصايا الزوجية ريثما يزور زوجي الطبيب طبيبا آخر، و ودعتني و أنا أطير فرحا وجدت الحل و أخبرتني أن " الموضوع بسيط " .

كنت من البساطة أن عدت للبيت سعيدة ، ربما سعيدة لأن الطبيبة أثبتت براءتي من تهمة تطاردني في عيني زوجي ، من سخرية لا أدري مغزاها ، و ربما لأنها طمأنتني أن الحالة سهل التعامل معها .

و حين سألني أين كنت ، أجبته و حكيت له ما قالته الطبيبة و ببراءة منقطعة النظير أنهيت كلامي بابتسامة و ربتت على كتفه و هو جالس

بجانبي و لكنه ما إن رفع رأسه حتى وجدت في عينيه بريق غضب شديد شلّ تفكيري و حرت في تفسيره لثوانٍ .

- رحت لدكتورة صاحبتك تفشي أمور أوضة النوم؟ تفضحيني ؟

- أفضحك ؟ انت بتقول إيه أنا رحت للدكتورة بناء على طلبك أنت قلت لي روحي اتعالجي .

لم يكن يستمع .. انتفض كالملسوع و هو يصرخ في وجهي :

- إنت بتستهبلي ؟ عاوزة توصلي لإيه عاوزة الناس يعرفوا إيه .. بتدمري مستقبلي ، كنت فاكرك بنت أصول .

- أصول إيه أنا عملت إيه فهمني إيه الغلط اللي عملته هاجر قالت إن العلاج بسيط ،

و كأنني ضغطت على زر جنونه ظل يردد في نوبته الجنونية : علاج بسيط علاج بسيط ؟

هوى بيده على وجهي وأنا جالسة وعلى وجهي علامات تساؤل حقيقية و ساذجة فلصقني في طرف الكرسي فتمايل ووقع بي.. نظرات الفزع سمرتني في مكاني على الأرض و صرخة مكتومة تشق حلقي ثم انهرت في نوبة بكاء شديد تركني هو بعدها وغادر المنزل .

في آخر الليل عاد نادر كنت في الفراش أتظاهر بالنوم ودموعي حارقة .. تسلل بجانبي ثم ربت على كتفي ..

- أنا عارف إنك صاحية .

لم أرد و لم ألتفت له ..

- داليا سامحيني أرجوكِ تسامحيني أنا مش عارف إزاي عملت كده ، أرجوكِ تسامحيني أنا ضغط الشغل وتّرني .

كنت في أتم استعداد لمسامحته كان هناك شيء في قلبي يشفق عليه يعذره .

أدرت له وجهي و الدموع تغمره ظل يقبلني و دموعه تختلط بدموعي ، من هذه القبلة المنكسرة عرفت أنه يحبني ، يحبني حقا، بعدها طويت الموضوع و انكفأت على ابني و عملي و دراستي لكن نادر كان يزداد انطواءً يعود متأخرا متعللا بالعمل يغلق على نفسه باب مكتبه بالساعات لا أدري ماذا يفعل كما إنه ازداد ابتعادا عني أصبحت لقاءاتنا الخاصة متباعدة متوترة سريعة مخفقة و محبطة له و لي في كثير من الأحيان .

و برغم كل ما حاولت أن أشغل نفسي به إلا أني كنت أشعر بانقباض شديد و بأنني في طريق غامض ، لا أعرف ماذا أفعل .

راودتني الشكوك مرة أخرى حين بدأ يطالبني بأشياء غريبة أرفضها فيتبعها بغضب مكتوم .

و في مرحلة ثانية ، بدأ يتململ من زياراتي لوالدي ، يتبرم بأي حديث لي مع صديقة ، يصاب بالجنون لو اتصلت بي هاجر أو جئت على سيرتها يرفض خروجي إلا نادرا ولبيت و الدي فقط يثور لأتفه سبب يغار حتى من سائق سيارته الخاصة يجن جنونه لو سأل عني زميل .

و طالت يده و امتدت عليّ لأكثر من مرة و أنا أجري منه في جنبات البيت كفأرة مذعورة حتى أصبحت في حالة يرثى لها .

و لأن السكوت على الخطأ يغري بالتمادي ، فقد تمادى حتى بدأ يلمح من آن لآخر أنني يجب أن أجمد دراساتي ، و أن علي الالتفات لابني قبل أن أبدأ عملا أو دراسة أن أستقيل من عملي حتى يكبر كان الكيل قد طفح بي وذات نقاش قلت له

- أستقيل ؟

- نعم ابنك أحق بوقتك وفي سن يحتاج لك فيها .

- لكننا لم نتفق على ذلك ، أنا طبيبة مثلك و أحب عملي و أنت تعلم و إلا لماذا آخذ خطوة نحو الماجستير و الدكتوراه ؟

- الموضوع انتهى هذا قراري .

- ماذا تقصد بقرار ؟ هل تقرر لحياتي ؟ لعملي ؟

- أنا زوجك و الموضوع ليس أكثر من إجازة بضعة أعوام حتى يشتد عود الولد .

- الطب ممارسة و أنا ما زلت في حاجة للممارسة .

- قلت ما عندي .

أكملت بشرود : و إن رفضت ؟

- قلت هذا قرار يعني اقبلي أو ارفضي لا فرق لدي سأنفذ قراري !

كنت أنظر له كأني أرى مخلوقا آخر ، مخلوق لا يعنيني إلا أن ابتعد عنه إن كنت أريد الحياة كما ينبغي أن تكون .

قلت : سأكمل دراستي و سأتابع عملي و ليس من حق أي إنسان أن يمنعني .

- جربي أن تكسري لي كلمة جربي و سنرى .

- هل تهددني يا نادر ؟

- نعم أهددك و من الآن لا خروج من البيت حتى والداك يزورانك هنا لا خروج بدوني .

- ما تقوله لن يحدث .

- حقا ؟ أنت تثيرين غضبي انتبهي .

لا أدري كيف واتتني الجرأة فأكملت :

- لا أخاف فلا تهددني أرجوك .

- هل تعتقدين أن لمثلك حياة عملية أو علمية ، انظري لنفسك أنت امرأة بائسة لا تصلحين لشيء لا زوجة و لا طبيبة و لا أم أتفهمين ؟ و إذا خرجت من هنا فلن تعودي و لن يكون بإمكانك رؤية ابنك مرة أخرى و لن تعملي في أي مكان جربيني و سترين بنفسك ، سترين كل شيء إلا ابنك .

- لا لن أصدقك ، لست إلها لتفعل بي كل هذا و أسكت ... البلد فيه قانون " ضحك بهستيرية مخيفة مرددا : " قانوني أنا صدقيني " صرخت " : لا لن أصدقك لست بائسة بل أنت .. و البؤس هو أن أصدقك .. و ... لم أكمل حتى انهال علي ضربا و صفعا كما لو كان عراكا في الشارع مع رجل مثله ، كانت نهايته أن علمت بالفعل أني امرأة بائسة لا أصلح لشيء ، انكسر بي ضلع و أصبت بألم في أذني أجلسني في الفراش ، فراش تجلس على طرفه أناي الأخرى التي بدت تنظر إلي بحيادية لا أدري أم تنظر لي باشمئزاز كأنها تشمت بي تقول لي خلال صمتها : أرأيت ما فعلته بنفسك !.

كانت انقطعت عن زيارتي منذ قبلت بنادر زوجا لي اشتقت لها حتى يأست من عودتها ، فاستسلمت لوحدتي وضعفي أمام نادر كم احتجتها في تلك الشقة الفارهة كم تمنيت أن تجلس معي في شرفتي على النيل لكنها رفضت أن تشاركني مباهج هذا المكان كأنها تتوقع ما سيلم بي فيه ، و توقعته في الحقيقة وحذرتني .

و تكررت الصفعات و تتابعت الاعتذارات ، كان يختلق الأسباب لضربي كأنه يريد أن يكسر بي شيئا ما ، شيء يخيفه ، كأنه استشعر أخيرا ذلك المارد المتململ بين ضلوعي فواصل ضربي و منعي من كل شيء أحبه ، ظل يضربني في أوقات مختلفة و لأسباب مبهمة كأنه ينفذ خطة ما ، ثم يجلس عند قدمي يبكي حتى انهرت نفسيا أصبح الخوف قسيمي لا أدري متى تأتي الضربة و ما السبب .. صرت أخاف .. كان يريدني أن أخاف و فعلا خفت و ارتعبت ، أهملت ابني و شعرت أنني سقطت في شرك لا فكاك لي منه و انقطعت خليلتي عن الظهور .

غيّر نادر كل أرقامي حتى لا تتصل بي هاجر أو أي شخص من زملائي و أساتذتي الذين يتابعون معي رسالتي و كلما قابله أحدهم تعلل له بمشاغل المنزل و الطفل ، لم يسمح بأرقامي سوى لوالدي بل إن زياراتي لوالدي تباعدت و عللها هو بانشغالي و عللتها والدتي ماجدة بطبائع الحياة .

كانت فكرة الطلاق مخيفة جدا في البداية ، إلا أنه و بعد تكرار ضربي أصبحت تلح علي و تؤرقني ، كنت قد أخفيت عن والدي ما أعانيه و ما

يفعله معي ، قد يموت لو علم ما أتعرض له ، في سنه تلك ليس بيده حيلة غارق بين كتبه و تأملاته محزون للتضييق عليه بعد عمر أفناه في حب وطنه .

لم يعد خوفي فقط من الضرب ، بل أصبحت أخاف كل شيء ، أخاف على أبي ، على ابني ، أخشى كل ما قد يخرجني من شرنقة الموت التي علقت بها أخشى أن أخرج في سني هذه حاملة اللقب الأكثر بشاعة في مجتمعنا ، و كان الأصعب على الإطلاق هو اضطهادي لنفسي ، فكرتي أنا عن الطلاق أنه جريمة هزيمة منيت بها دون سبب ، نعم سيراني الناس مهزومة جانية لا أدري .. كان الوضع و اللقب يخيفانّي كأكثر ما يكون .

و كيف لي أن أنسى أو أتناسى موروثا طويلا من القهر المجتمعي تمت ممارسته على المرأة المطلقة في الوقت الذي يتأسى ويتصعبن فيه نفس المجتمع على الرجل المطلق ، فهو في نظر المجتمع المسكين الذي يستحق فرصة أخرى ، و ربما كما يقولون يحتاج لـ" بنت بنوت " بدلا من تلك اللئيمة الفاجرة الغادرة التي غادرته .

هو الذي يعود مدللا من كل النساء حوله و محسودا من معظم الرجال على حرية استعادها أما المرأة المطلقة ، فهي سبب الطلاق بكل الأحوال مهما شرحت أو أقسمت يظل الشك فيها قائما من الجميع وهي التي لا تستحق فرصة ثانية و إلا قيل إنها و إن تزوجت فلا بد أن يكون رجلا ذا ظروف خاصة جدا ، أكبر منها بعمر مثلا ، أو مطلق مثلها و لكن لا ينجب أو لديه أبناء و يحتاج لمن تخدمهم أكثر من احتياجه لزوجة

تنتظر منه العطاء و ليس الأخذ فقط يعاملها بتنازل إذ أشفق عليها و تزوجها وهي " كسْر " .
كما أنه من العار أن يتزوج رجل لم يسبق له الزواج من امرأة مطلقة و تكون - كما يقولون - " أول بختـه " إذ كيف لا يختار بنت بنوت و يختار مطلقة " مستعملة " بمشاكلها وعقدها و أبنائها إن وجدوا .
كان كل هذا يطن في رأسي ويجعلني أتأرجح في الأفكار بين التمادي فيما أفكر فيه من خلاص و بين أعراف الناس و ما سوف يطاردني كنت أرى طلاقي نهاية العالم بالنسبة لي ، إقرار بفشلي كزوجة ، كأنثى .
من سيصدقني إذا حكيت ، من سيصدق أن الملاك الشافي رجل البر و الإحسان " أبانا الذي في المستشفى " ، صديق الوزراء و كاتم أسرارهم ، هو ذلك المجنون السادي ، من سيعيد لي ابني إن أخذه مني ، أي قانون سيأخذ صفي في وطن جعل القانون وراء ظهره و مضى . ذهلت حتى لم أعد أرى أسفل قدمي مشتتة الذهن لا أعرف ما الذي عليّ فعله.
كان الحل أن ألجأ لهاجر مرة أخرى ، شيء ما بأعماقي كان يناديني أن أقاوم ، صوت خليلتي الذي ما فارقني كأنه محفور على الجدران و على أرضية حجرتي كأنها وراء الستارة المخملية في غرفتي أقوم لأبحث عنها فلا أجدها لكن صوتها في رأسي يأمرني أن اذهبي لهاجر ، اذهبي سرا ، تستطيعين إن أردت ، تستطيعين كل شيء ، و فعلتُ ، كنتُ أعود هاجر من آن لآخر سرا بعد أن منعني من زيارتها و رجوتها ألا تنبس ببنت شفة عما يحدث لي لوالدي .

رجعت إليها بعد أن ارتبكت انفعالاتي وفقدت تركيزي في المذاكرة صدقته حتى لم أعد بالفعل أصلح لشيء و هو كان يكررها لي لا تصلحين كزوجة و لا امرأة لن تكوني طبيبة كما تتوهمين لا تصلحين لشيء .

بدأت هاجر تساعدني لاحتواء الموقف نفسيا من جهتي و لو إلى حين ، كانت تحثني على الطلاق منه لعنفه ، و تؤنبني على ما يراه صغيري في تلك السن الغضة ، لكنني كنت أجبن من اتخاذ ذلك القرار .

بالرغم من ذلك ، نجحت هاجر في أن تعيد لي الكثير من الثقة التي اهتزت عاونتني لإرجاع العلاقة الطيبة بنفسي ، كدت أشفى بالفعل من أَرَقي حاولت ألا أثير نوبات غضبه قدر المستطاع أن أتجنب ثوراته الجنونية التي تؤذيني حتى كان طلبه الأخير و إلحاحه فيه .

- إنت اتجننت يا نادر ؟

- اتجننت ليه ؟ انت مراتي .

- اللي بتقوله ده حرام ، مينفعش ، إنت فاهم كويس أنت بتقول ايه !

- هاتي لي آية واحدة أو حديث بيمنع أني أعمل اللي أنا عاوزه مع مراتي .

- صرخت : "بس .. بس اسكت أنت بتجادل في إيه هو ده كمان فيه آراء ! " ثم بيأس و إعياء " أنا مستحيل أعمل كده " ، قلتها كأني أخبر نفسي بها و أشدد عليها و ظللت أردد في نفسي : لا ، مستحيل .. لا تفعلي .. لن أفعل .. مستحيل توصلي لكده ..

- اقترب مني و أمسكني من ذراعي بعنف ، ارتعدت ، فقد أصبحت أعرف تلك النظرة التي تلوح في عينيه ، وأعرف ما يحدث بعدها .

- لأنك متخلفة باردة فاكرة نفسك أحسن مني و أنت و لا حاجة مبتفهميش في حاجة

- نظرت خلفه فوجدت خليلتي تنظر لي بغضب شديد ، شعرت بالغضب كأنه عدوَى انتقلت إلي ، فأرجعت نظري إليه بنفس الغضب نقلت بصري بينه و بينها فالتفت خلفه قائلا : لاا .. انت اتجننت فعلا .

- كان كلامه الذي اعتدته جارحا جامحا يقذفني به فتشتعل داخلي حمم أحاول أن أطفئها ، تلك المرة لم أفلح في إطفائها ، شعرت به يطعنني في أنوثتي في صميم نفسي .. صوت هاجر عاد يطن في أذني و صوت أناي يهمس بغضب : اثبتي أنت رائعة قوية لا تسمحي لأحد أن يقلل من شأنك ، صرخت :

- أنا كويسة ، أنا طبيعية و مش هاسمحلك تقلل من شأني و توترني تاني و لا توجه لي كلام زي ده مين قالك إن اللي بتطلبه ده هينفع لحالتك ؟

- صرخ : حالتي ؟ هو أنا بقيت حالة يا دكتورة ؟ مين اللي مسحت دماغك و فهمتك إني حالة مين اللي جننتك أكتر ما انت مجنونة مين اللي بتقوليلها كل أسراري أنا سمعتي راحت وأنت السبب فاهمة يا بنت الأصول .

كانت تلك هي نهاية الحديث لأنه – كالعادة - انهال علي ضربا بعد أن داهمه جنونه المفاجيء هذه المرة كان الوضع متدهورا بشكل ينذر بجريمة ، كان يضربني و أنا أصرخ لأول مرة علّ أحد الجيران يسمعني و ينجدني لكن جيراننا في البناية الشامخة صم بكم عمي ، يخشون

التـدخل حتى لـو انتهى بجريمـة قتـل ، يخـافون الطبيـب الشـهير ذا السطوة و الجبروت .

و ابني الـذي لـم يبلـغ الرابعـة يصـرخ مرعوبـا على بـاب حجرتـه للحظـات كانـت صـفعاته و ركلاتـه تكـومني على الأرض جرجرني على الأرض مـن شـعري تشـبثت بكرسي ثقيل فخبط رأسي بحافته سـال الـدم من رأسي سـاخنا على وجهي ثم خلـع حـزام بنطالـه و ظل يجلـدني بـه وأنـا متكومـة كجنين أحمي وجهي مما قـد يطولـه و صـراخي يشـق سـماء الحي الهـادئ و آلام مبرحة بدماغي كأن رأسي انفجرت به قنبلة .

بعـد دقـائق مـن الضـرب المتواصـل توقـف منهكـا و هـو ينظـر لي بإعيـاء مـذهولا كأنـه لا يـدري مـاذا فعـل ، ظلـت عينـاه متعلقـة بصـدري كأنـه يطمئن أني ما زلت على قيد الحياة و قـد تناثرت بقـع الـدم على ملابسي و ظهري ثم غادر مسرعا .

لـم أدخل في حالـة إغماء رغـم حالتي ، كان خـوفي على ابني هـو ما جعلني أتحامل و لا أفقد الـوعي حتى أزحـف نحوه و أتصـل بوالـدي ، كان وجهي مخضـبا بـدمي و دمـوعي التي تلسـعني حـين قمـت متثاقلـة أحتضـن ابني و أهدهده و نفسـه يتقطع وسـط بكائه و وسـط كل هذا أرى أناي تمشي أمـامي و تسـبقني إلى بـاب الشـقة كأنهـا ترشـدني إلى المخـرج و إلى الهـرب ، و إلى الحياة ، و في عيني ابني نظرة لن أنسـاها .

رفضـت الـذهاب للمستشـفى و طلبـت مـن والـدي أن يتصـل بمصـطفى زميلي لينقلني إلى بيتنا و يعالجني هناك كنت أتوقع أن يغيب نادر لأشهر

أن يختفي تماما خوفا من رد فعلي و رد فعل والدي و قد فعل ، هرب ، هذا هو ما شعرت به .

بعدما شفيت قليلا من جروحي لا أدري ما الذي دعاني أن أعود لبيته لأجمع حاجاتي و قد توصلت بكل جوارحي إلى قرار الطلاق ، و أصر والدي عليه بالطبع بعد أن حكيت له ما أعانيه إلا ما اعترى علاقتنا الخاصة من أشياء خجلت من سردها ... ، فقد جعلت لها سردابا في داخلي آخذه معي لقبري بعد موتي خوفا على سمعة ابني و والد ابني .

كان عتاب أبي و أمي ماجدة أني أخفيت عنهما كل هذا العذاب و الإهانة التي تعرضت مريرا ، داخلهما شك من ناحية الرجل و ممارساته إلا أن حديثي عنه تمركز حول العنف .

و لكنني قررت أن أعود للبيت لأجمع حاجياتي ، شككت لوهلة و أنا أمام الباب أنني سأجده و سيضربني أو يقتلني لكنني قاومت خوفي و صممت أن أدخل .

حين دخلت ظللت أدور بالمكان أتأمل الشقة ، أشاهدها كما لم أشاهدها قبلا مشاعري كانت مختلفة تماما عما كانت حين رأيتها لأول مرة مبهورة بها كما أنها مختلفة عما كنت أشعر به و أنا داخلها حين صارت ذلك السجن الفاخر و صاحبه الجلاد الأنيق الراقي .

في كل مكان صفعة ، عند تلك " الفاز " البوهيميا ، لكزني في صدري و في هذا الموضع بجانب هذه المنضدة " السينييه " كلمة حارقة و هنا أسفل هذا التابلوه العالمي ركلة أصابت أسفل بطني فتكورت من الألم

و استندت على هذا العامود المزخرف شعرت بألمها كأنها حديثة عهد أمسكت أسفل بطني .
تذكرت كل هذا ، لكني لم أكن أبكي وهذ ما أثار اندهاشي توقعت أن أنهار في البكاء حال دخولي البيت أبكي نفسي و أرثيها إلا أن جلدا و برودا انتاباني بلا سبب
- كنت أعرف مواعيده و أعرف أنه لن يأتي للبيت في هذا الوقت و إذ بي فجأة أتوجه لمكتبه ذهبت إلى " اللاب توب " الخاص به و فتحته و تصفحت المواقع التي دخلها حتى صفحته على الموقع الجديد الغريب فيس بوك كانت مفتوحة و لأول مرة أجد نفسي أتلصص على رسائله و محادثاته لم أتخيل للحظة ما أراه كأني أتلصص على رجل آخر، لا أعرفه مواقع إباحية و سيدات سيئات السمعة يرسلن صورا و أفلاما و محادثات غاية في التدني يا إلهي نادر !! الدكتور نادر ابن الناس المثقف المحترم الجلاد المتكبرلم يكن ينقصه إلا هذا ليصبح شيطانا بكل ما للشيطان من وسامة و إغراء و قسوة و مجون و إنسانا مسكينا مهزوما بكل ما في الكلمة من ألم و إهانة لرجولته .

ساعتها فقط بدأت دموعي تنزل صامتة تلسع جروحي لم أكن أصدق عيني شككت للحظات فعلا في ما أراه العديد من " الحسابات الشخصية " بأسماء مستعارة مختلقة كلها مفتوحة على مصراعيها للمواقع الإباحية و راغبات التسلية لا أصدق ما أراه ما يدريني فلربما تخونني عيناي كما خانني قلبي !

في هذه اللحظة كنت أفتش حاجاته و أنا أبكي بكاءً مريحا هادئا كأني أغسل نفسي و سنوات عمري مما علق بها من قذى و من صديد الإهانة و القهر و السادية كانت الدموع تطهر جروحي تبرد قلبي المشتعل حزنا ما رأيته من صور و محادثات جعلني أكثر صلابة و قوة ، و حين انتهيت و في لحظات أعددت حقيبتي و رجعت إلى بيت أبي و قد شعرت أنني نفدت بجلدي ، كل من حولي جربوا أن يستنطقوني أن يعرفوا سبب المشاجرة الأخيرة لكنني كنت مصممة على الانفصال تحت أي ظروف قدمت إجازة من العمل حتى تشفى آلامي ، كنت أعرف أن الزمن فقط لديه الإجابة إن كانت ستشفى أم ستظل عاهة روحية مستديمة تترك ندبتها أثرا يدوم العمر كله .

مصطفى زميلي هو الوحيد الذي استأمنته على جروحي ليخيطها دون أن يسرب أخباري و لا أن يتحدث عن أي مما حدث .

كان يخيطها وهو يكتم دموعه و أنا أتألم بين يديه .

- كيف سمحت له ، كيف جرؤ على لمسك لا أريد أن أسأل عما حدث فالتفاصيل لم تعد مهمة أمام هذا الـ ... ده شخص غير طبيعي لا بد أن تبلغي الشرطة

- مصطفى ... أرجوك

- لا ترجوني قلبي كان يحدثني أنك لست سعيدة و الآن ماذا قررت ؟

- إجراءات الطلاق ستتم في أقرب وقت لا شرطة و لا فضائح في استطاعته أن يرتب محضرا جديدا يفصله على مقاسه يستطيع أن

يقول فيه عني أي شيء أي شيء ، لذا فقد التقطت أنفاسي حين وافق على الطلاق في هدوء .

- ما فعله هذه المرة جعله يرى أن احتفاظه بي لأكثر من هذا قد يجعلني أنتحر أو أقول أكثر مما ينبغي ، و حتى لو لم يصدقني الناس فالعيار إذا لم يصب يدوش ، و هو واجهة المجتمع و صفوته صديق الوزراء الذي يتحضر لانتخابات مجلس الشعب عن قريته كما علمت من مصطفى سيترشح في العام المقبل . كل هذا جعله يطلقني في هدوء و تكتم .

- يكفي ما رآه ابني أريد أن ألملم جراحه ، لا أن أزيدها بمشاكل مع أبيه سأحصل على الطلاق في أقرب وقت المشهد الأخير كان الأقسى على طفولته الغضة أريده أن ينسى .

- أقرب وقت ؟! تأخرت كثيرا يا داليا .

- نصيبي

- سذاجتك

هل تعرفين أني أتابع كل أخباره منذ زواجكما ، نجاحه في دائرته أمر مفروغ منه ، فاسد في كل شيء، يا داليا كيف خانك قلبك لتتزوجيه !

مصطفى .. كفاية أرجوك .

كفاية.. فعلا كفاية ... هي دي كلمة السر .

" نظرت إليه غير فاهمة لما يقول ، فأشاح بوجهه "

- حاول نادر كثيرا و بكى كثيرا حتى كدت أن ألين في لحظة و في لحظة ما صور لي شيطاني أن الصبر جميل و أن اللقب فادح في سني تلك و أن طفلي ذا الأربع أعوام يستحق أن أتحمل و ألا أضيع من يديه والدا كوالده ، هززت رأسي لا لا و تراجعت هلعة مما قد أصل إليه إذا ما تنازلت و رجعت إليه ، أي جنون هذا الذي فكرت فيه ذات يأس !

هل أحببت جلادي فعلا ، هل أصبحت أتلذذ بساديته ، هل حولني إلى مازوخية ! إنه مرض معروف حدثتني عنه هاجر و حذرتني منه ، يصاب به المعذَّبون ، يحبون عذابهم و يستمرئونه ،

أم إنها متلازمة ستوكهولم حيث تتوحد الضحية مع جلادها و تلتمس له الأعذار بمجرد أن يظهر الجلاد قليلا من الطيبة و تنسى الضحية كل ما عانته من آلام ، يا إلهي ! لالالالا ، هل أبحث عن تبرير لجنونه ؟! هززت رأسي بشدة أنفض عنها ترهاتها، فلمحتها جالسة على طرف سريري تمشط شعرها – شعري - ابتسمت لي و قالت : كفاية .

شيطان بالتأكيد هو من وسوس لي بأنني أحمي طفلي باستمراري مع أب بهذه الصورة ، فما عانيته و ما فعله بي لسنوات و ما رأيته و ما قرأته مؤخرا ظل حائلا بيني و بينه بل أصبح أقوى من كل أشباح الطلاق التي دارت في مخيلتي ، صممتُ تماما على الطلاق مدفوعة بخوفي من السقوط في براثن مرض نفسي .

و بالفعل حدث الطلاق و أنا في أتم حالات الهدوء و الصفاء الذهني و الإعراض عن أي طلبات أو حقوق و لم أشر و لو بحرف عما كان بيننا و ربما هذا هو ما حفظه لي و كان ممتنا لي بسببه ، عزوفي عن سرد أي

تفاصيل و إصراري على الطلاق بدعوى معرفته بسيدة أخرى كان هذا هو السبب المنطقي الوحيد الذي وقع اختياري عليه والذي يحفظ للجميع ماء وجوههم .

و أثبتت الأيام أني كنت على حق في اختياري لهذا السبب الذي سقته لمن حولي ، فقد أشعره السبب بالاعتداد بنفسه و برجولته وحفظها لي كجميل في عنقه ، إذ كيف أشوه صورة أبي ابني و كيف أخوض فيه .

كانت علاقته بامرأة أخرى سببا وجيها في مجتمعنا - ذي الوجهين - البغيض الخالي من أي منطق ، كما أنه كافٍ للطلاق ، لا يضيره كرجل بل يزيد من صورته الرجولية سحرا و لا يؤذيني بل يجلب لي التعاطف بعض الأحيان و إن كان يجلب العتب من الأغلبية ، ذلك أني لم أتحمل لأن " كل الرجاله كده " كيف لمثل هذا الرجل أن يُترَك لسبب تافه كهذا ! إلا أنه و برغم ذلك ظلت علاقاته النسائية سببا منطقيا للطلاق .

خرجت من تلك التجربة حاملة كل شكي في نفسي و في أنوثتي التي لم تجد نفعا معه و ذكريات صور لم أتخيل أن تمر أمام عيني يوما ، لم أتوقع أن أفشل بتلك الصورة المهينة ، أن ينتهي زواجي نهاية مأساوية .

الكثير مما كنت لا أفهمه و يدور حولي ظل يؤرقني و لا يريد أن يطلق سراحي . قضيت شهورا في حالة يرثى لها ، حتى ابني أهملته ، انزوى وصار متعلقا بوالديّ أكثر مني ، كانا يمثلان له شخوصا طبيعية، زوج و زوجة و ابن بلا شجار و لا أم منهارة نفسيا لكنه كان وحيدا في سنه تلك الصغيرة ، تحول تعلقه بي لنفور و خوف من أم تقضي معظم

أوقاتها نائمة و تصحو مهوشة الشعر غائمة ، ألوم نفسي ، ألومها في كل شيء و لا أعفيها من تلك الحالة التي وصل لها صغيري .

أبي الذي مازال يواصل كتاباته ، بدأت السلطات تتبارى في معاكسته ، فوجيء ببعض الجرائد التي كان يكتب فيها تعتذر عن نشر مقالاته بعد أن كانت تنتظرها بفارغ الصبر نظرا للإقبال عليها ، البعض طالبوه بالكتابة في أي شيء آخر . ما الذي يستطيع عالم تاريخ أن يتحدث عنه غير التاريخ ؟؟

ازداد انعزال أبي و تفرغ لموسوعته الجديدة ، إلا أن دار النشر التي كان تعاقد معها تراجعت ، و بدأت مكالمات تأتيه تحذره مغبة نشر الموسوعة .

دخلت والدتي حجرتي مهمومة مستاءة لما وصلت إليه حالتي و مرتعبة مما قد يحدث لوالدي و رأسه الصلب الذي لا يفتأ يوقعه في متاعب جديدة ، حدثتني طويلا حتى جف ريقها..وانا أمامها كصنم لاهٍ لا يفقه قولا .

إذن أنت لا تهتمين لأبيك بل للأب الوحيد الذي سيبقى لابنك ، كنت أعتقدك أقوى من كل شيء ، ابنك و أبوك سيضيعان لن يستمع الدكتور عبدالرحمن إلا لك ، هو واثق بقدرتك على الوقوف مرة أخرى و لكنه يعطيك وقتا ، لا يدري أن الوقت ينفد منه و منك ربما أنا أقل منكما علما و ثقافة لكن قلبي يحدثني بأن هناك خطب ما سيحدث إن لم تنتبهي لوالدك و ابنك " نظرت لها ذاهلة ، كنت أعرف و أعي كل ما يدور حولي إلا أن حبل التواصل مع الآخرين في عقلي انقطع " صرخَت

فيّ وهي تهزني " : لو ضاع حد فيهم و في الغالب الاتنين هيضيعوا منك - أصلك وفرعك - مش هيبقى لك وجود ، مش هتسامحي نفسك و لا أنا هسامحك ، يا بنتي أنا عايشة علشان أبوك و ابنك ، عيشي إنت كمان علشانهم ، الحقيهم أبوس ايدك يابنتي ." ضمتني لصدرها فاستشعرت دموعها على رقبتي تسيل ساخنة غزيرة ، تحركت يداي لتحتويها و عيناي تلمحان أناي تواجهني بوجه جامد ، كانت تلك بشائر استفاقة ، مجرد بشائر .

لم أستفق بشكل كامل من غيبوبتي كإنسان إلا ذات يوم كان ابني عائدا من مدرسته حيث ينتظره والدي في الشرفة و ما إن تقترب حافلة المدرسة حتى يخرج أبي للقائه و عبور الطريق نحوه حيث تقف حافلة مدرسته ، في هذا اليوم كنت أقف في الشرفة أتطلع للعالم الغريب الذي غبت عنه دون أن أشعر ، لمحت الحافلة فنزلت مسرعة أعدو ، في نفسي أحببت أن أثبت لصغيري هذا أنني مازلت أمه ، نزلت وعبرت الطريق ، وتوقفت الحافلة ، نظر إلي السائق باستغراب ، و انفتح الباب لتواجهني المشرفة بنفس النظرات الممتلئة بالاستغراب و الشفقة و أمامها يقف صغيري مذهولا ممسكا بيد مشرفته ، اقتربت منه لكنه راوغني و جرى مني مبتعدا ليعبر الطريق . و حين كان يعبره و أنا مازلت في دهشتي سمعت صراخا. و صوت سيارة يقطع صرير مكابحها سكون الحي الهادىء ، لم أشعر بقلبي فقد قفز من ضلوعي و جريت لأجد ابني في أحضان والدي في منتصف الشارع متكوما في حضن أبي و السيارة

قاب قوسين أو أدنى منه .

لـم يُـرِدْ صـغيري أن تعـرف المشـرفة و زمـلاؤه أن أمـه تلـك الواقفـة في الشـارع " بالبيجامـا " و شـعرها مهـوش و حـول عينيهـا هـالات سـوداء ، هرب مني و توقفت السيارة أثناء عبوره في آخر لحظة ، ركعت بجانب طفلي و أبي في وسـط الطريـق ، أبي عيناه ممتلئتـان بالـدموع و صـغيري يخفي وجهه في صدره و حولنا المارة و صاحب السيارة .

لـم أكـن أسـتمع جيـدا لما يقـال حـولي لكنني و منـذ ذلـك اليـوم قـررت أن أكون الأم التي تليق بابني ، أنقذني حبه من تلك الدوامة التي دخلتها ، كنـت أقـف على حافـة الحيـاة و أقترب مـن نهايتهـا ، يمـر أمـامي شـريط حياتي باهتا لا روح فيه ، حياة رتيبة مثالية و زيجة تسر الناظرين إلا أن الحقيقة أن ما عانيته خلالها من جروح جسدية و جراح نفسية تركت ندبة عميقة ، عاهة مستديمة سأظل أذكرها كلما نظرت في مرآة روحي ، عشـر سـنوات مرت و أنا مازلت أسيرة الـذكرى المؤلمة و الـرفض المسـتمر لكل من أقابله في طريقي ، كرهت جنس الرجال .

=======

قرر والدي بعد تلك السنين أن يطبع الموسوعة في بيروت ، فاجأنا بقرار سـفره المفاجىء ، لـم يقـل لشـخص ، قـطع تـذكرة السـفر و أبلغنـا ليلتهـا ، كانـت المفاجـاة سـعيدة بالنسـبة لي ، إلا أن أمـي ماجـدة استشـعرت الخوف .

يـا ماما لا تخـافي ، هـم لـن يـؤذوه ، لـقد حـذروه و اسـتمع لتحـذيرهم و هـا هـو يسـافر في زيـارة لأحـد أصـدقائه في جامعـة بيروت - الـدكتور سـمير صيدم -

بخوف : نعم ذلك الذي زارنا منذ مدة و أسرع بالرحيل بعد أن طالبته السلطات المصرية بسرعة العودة للبنان .

نعم يا ماما ، كانت هناك مؤامرة لاغتياله في مصر من الحركة الإسلامية التي تعادي الفريق الذي ينتمي له .

لقد تعبنا من الحركات و الفرق ، و ها هو رجل يحمل كفنه على يده أينما حل ، ما سبب أن يسافر له أبوك ؟ قد يتصيدون وجوده و يتخلصون منهما سويا .

يا ماما أنت تشاهدين الأفلام الأجنبية بكثرة ، هذا الرجل بالذات سيمده بمراجع مهمة تساعده في إنهاء بحثه و صور فوتوغرافية عن فلسطين و النكبة .

النكبة ستحل قريبا . هل قال لك والدك أنه سيسافر من بيروت إلى سوسة في تونس ؟

سوسة ؟

نعم ليزور صديقه دكتور الهادي الجلولي - طبعا تعرفيه - تعرفينهم جميعا

نعم أستاذ جامعة سوسة . لماذا ؟

دعوة لمحاضرات بالشراكة مع عدة جامعات عربية ، يقول إن الطلبة اصطفوا بالمئات لحضور محاضرته

أخاف عليه ، هم لا يحبون لشخص أن يظهر في الواجهة ، يخشون كل جديد يلتف حوله الناس و الشباب .

هههههه لقد أثمرت مجهودات أبي معك ، على كل ، لعلها سفرة خير

تخرجه من حالة الإحباط التي واجهها في الآونة الأخيرة ، لقد باتوا يضيقون عليه حتى المحاضرات ، لا أدري لما يخشون تحليلاته ، لعلهم لو أخذوا بها لانصلح الحال ، لا أدري هل هم فعلا لا يريدون إصلاح الحال أم أن قوى أكبر لا تريده و ترغمهم .

قلبي خائف ، هناك أمر ما ، يقول لي في ساعات شروده نفس كلامك ، يقول إن التفاف الطلبة حوله يزعجهم ، و إنهم غير راغبين في أن يمرر أفكاره تلك حول المؤامرات و الانهيار الوشيك ، لا أدري ، تعبيراته لا أفهمها...

- تتنهد و قد شبكت يديها في حجرها : مش فاهمة حاجة ، أكيد إنت فاهمة .

عاد أبي من رحلته ، عاد مهموما و في عينيه غيمة حزينة ، لم نفلح في استجلاء أسبابها إلا أنه توقف تماما عن الحديث عن موسوعته و عن طبعها .

يا بابا : ما الذي أقلقك في سفرة تونس و ماذا حدث لموسوعتك ؟

لن أطبعها .

كيف ؟! إنها عصارة أحد عشر عاما ، منذ تفجير برج التجارة العالمي ، أذكر جيدا ١٩٩٩.

الوضع في تونس سيء ، كما هو في مصر كما لبنان ، كما كل مكان في الشرق الأوسط .

- نحن متشابهون و كلنا في الهم شرق كما يقولون ...

لا يا ابنتي ، أرى الأرض ممهدة لأحداث جسام .

الفساد يا بابا .

نعم ، حتى تونس تلك البقعة الطيبة الرطيبة يتآكلها الفساد ، هل تعلمين أن في تونس نسبة الأمية صفر ؟ و أن بها أكبر نسبة من حاملي الدكتوراه في الشرق الأوسط ، هل تعلمين أنه لا يوجد منازل مؤجرة ، الكل يعيش في بيوت يملكونها ، برغم كل هذا الأزمة الاقتصادية و الفساد الضارب في الطبقة الحاكمة نذير سوء و الأجواء ملبدة بغضب مكتوم .

أقلقتني يا بابا ، ألهذه الدرجة ؟

نعم لهذه الدرجة إلا أننا نظل الأسوأ حالا .

بالتأكيد نحن مائة مليون و نسبة الأمية عالية إلى جانب الجهل و انعدام الثقافة .

لكن إحك لي كيف كانت محاضراتك ؟

- يتنهد الأب ثم يشرد نحو النافذة : إنهم خائفون يا ابنتي ، يخشون ما أتوقعه و يخشون ما أنادي به و يخشون الشباب الذين يؤمنون بما أقول ، الخوف يكبلهم ، والخوف سيكون فيه هلاكهم ؛ فالخائف لا يجيد التفكير و لا التصرف ، كذلك اليائس ليس لديه شيء ليخسره ؛ فإذا ما اصطدم الخائف باليائس حدثت الطامة الكبرى .

لا أفهم عمن تتكلم يا بابا أرجوك وضح لي ، كنت دوما كتاب أسرار مغلق ، رجاء طمني .

منعني أمن الدولة من المحاضرات ، قالوا لي إن البلد على شفا انتخابات و لا يريدون أي قلاقل فتوقعت أن الانتخابات سيكون التزوير بها أسوأ

من كل عام كما كانت في ٢٠٠٥ بل أكثر فجورا ، ليتهم يتفهمون ما يحاك لهم بليل .

وهل بمخابراتهم و بأمن الدولة بكل أجهزتهم لم يتوصلوا لما توصلت أنت إليه ؟

لا يصدقون ، إنها نشوة الخلود في الحكم تصيب الحاكم بأنفلونزا فلا يشتم رائحة الخطر ، و يركن للدعة و يشعر أنه يدير مزرعة سعيدة يعيش بها الحيوانات دون تمرد أو غضب ، و موضوع التوريث سيكون القشة التي ستقصم ظهر البعير .

هل ترى أنهم ماضون فيه بالفعل ؟

بعض المتوغلين في القصر يريدون للابن أن يحكم بمساعدة الأم ، ألم أقل لك أنه بمرور الوقت استمرأوا فكرة المزرعة السعيدة ؟ لكني لا أتوقع أن يسكت الجيش ، كله إلا العبث بمصر ، يكرهون الولد ، و يثير المشاكل بين القادة و بين الأب ، و بالتأكيد تقارير المخابرات تؤكد لهم أن البلد يغلي .

تتحدث كأن الحرب على الأبواب ، و لكني لا أرى إلا شعبا مستسلما منهكا محبا للفساد غارقا فيه .

حساباتي تقول إن شيئا ما سيحدث ، و هم يمشون باستراتيجية خطيرة ، تركوا الفساد يتوغل في كل الطبقات ليضمنوا الخنوع لسطوتهم ، واطمئنوا ذلك أن الفاسد لا يثور على الفساد ، هكذا ضمنوا ولاء الجميع و استبعدوا فكرة الثورة ، لذا فإنهم لا يهتمون للتقارير الأمنية ،لكنهم أغفلوا الخطط الخارجية التي قد تمتد لتحرك كرة الثلج

و تدحرجها والوضع ممهد بالفعل .
و الحل في وجهة نظرك ؟
في وجهة نظري لم يعد هناك حل فقد تأخروا كثيرا وسيفعل الله ما يريد.
و عدت ، عدت لنفسي وعملي و صومعتي و كتبي و اكتفيت بابني .
سنوات مرت ، كان الكتاب رجلي الذي أصطحبه معي لحجرتي كل ليلة أغفو و أنا بين أحضانه ، لا أخشى غدره ؛ فلا هو سيصفعني و لا يكذب أبدا ، يقول ما في قلبه ، صفحاته مفتوحة أمامي بلا موارية ، له وجه واحد و كلمة واحدة .
كانت القراءة تعطيني حياة موازية غير تلك التي عشتها ، حياة أختار أنا أبطالها و لا يستطيع أحد أن يفرضهم عليّ ، وحدي فقط أقرر من أكون و لمن أكون ، كان الناس يرونني عصية متعالية ، لم يتوقعوا ما أفعله بحياتي ، لم يفهموا انطباقي على نفسي ككتاب غامض ممسوس .
حاولت أن أتناسى مشاعري كامرأة قُتِلَتْ بكل ما في الكلمة من معنى إلا أنها ما زالت قيد الحياة ، قيد الألم ، و عدت لأسجن المارد الذي يعتقله قلبي و جسدي لفترة طويلة حتى بعد أن خرجت مرة أخرى للنور لأواجه الناس بصلابة مزيفة و أنفة مصطنعة تضمن لي مسافة كافية للاختباء عن أعين المتلصصين على ماضيّ .

الكل حين يعلم أن لدي طفل على أعتاب المراهقة يحاصرني بالأسئلة، كيف و متى و لم تزوجت في سن صغيرة و .. و .. و... يؤلبون عليّ نفسي

و يزيدون مواجعي ، يصرون على معرفة تفاصيل لها أشواك مازالت عالقة في روحي ، لم أعد أحب أن يعرف أحد عني أي شيء ، أخفي طلاقي ، ابني ، أخفي كل شيء عني ، أكاد أخفي ذاتي نفسها لأصبح غير مرئية ، إلا أن من يفعل ذلك يصير - للأسف - مرئيا أكثر مما ينبغي .

نظرات الجميع تحاصرني أينما ذهبت ، جمالي و طلاقي كانا نقمة لو تعرفون ، و لعلكم تعرفون أكثر مني ، معنى أن تكون المرأة مطلقة و زد عليها أن تكون جميلة ، صفتان كافيتان لإنزال أقسى العقاب بها ، تتجنبها الصديقات و الجارات خشية أن تهدم بيوتهن و تسرق أزواجهن و يلاحقها الرجال كفريسة سهلة شهية رغم أن الجمال في الأصل نعمة .. نعم الجمال نعمة ، قوة لا يستهان بها حتى و لو مؤقتة بفعل الزمن أو أي عارض ، المرأة الجميلة تهزم المنطق أينما حلت، تكسر هيبة أعتى الرجال ، تقر قوانين جديدة للمكان ، فإذا اقترن الجمال بالذكاء كان فيهما إما نهايتها أو بداية عصر يسمى باسمها – و يا ألله كم هي معادلة صعبة ! أن تجتمع الأنوثة بالثقافة ؛ فصاحبة الميزتين قلما تجد رجلا يرضي عقلها ، قد تحب رجلا و سرعان ما تبتعد بعد قياس المسافة الشاهقة بين امتلائها و فراغه العقلي ، رجولته الطاووسية الخاوية .

و الرجال قد يحببنها إلا أنهم يترددون كثيرا قبل الزواج بها أو حتى قبولها ضمن مرؤوسيهم .

مضطهدة هي لجمالها منبوذة لثقافتها ، فعليها في كثير من الأحيان أن تتغابى أو تصطنع الجهل ، عليها أن تكبت سطوة حسنها الداخلي و أن تروض كل من حولها من وحوش حتى لا يلتفتن أحد لهذا الكنز المخبوء

في رأسها الجميل ، هذا ما علمتنيه الحياة و هكذا عدت أرتدي قسرا قناع التبتل في محراب الطب و الأمومة في عمر مبكرة جدا ، لم يكن ذلك سوى درع لحمايتي من أي هزة أخرى، و كلما رأيت رجلا وسيما ينجذب إلي ، سخرت منه في قرار نفسي ، من يدري إذا انغلق عليه باب مع زوجته ماذا يحدث !

و أنا بخاتم استبقيته في يدي أدرأ به كلام الناس في مكان عملي و لكن هيهات أن تخفي موضوعا كالزواج أو الطلاق لا سيما إن كان الزوج يعمل بنفس المجال ، بالرغم من ذلك لم أخلع الدبلة مع الوقت صارت درعا نفسيا لحمايتي تشعرني أني امرأة طبيعية ، أصبحت تحميني من نفسي ، من نظرتي لنفسي ، من جاهلية متأصلة فينا رغم ألف و أربعمائة عام من الإسلام ، من شك يملؤني حول نفسي ، من يدري لعل نادر كان محقا ، لعلي السبب في حالته بالفعل ، قتلتني الأفكار و أنا أهز رأسي لأطردها ، أصبح انعزالي و ترفعي طبقة هشة تخفي خلفها امرأة مهزومة مشوشة كسرها العنف و الحرمان من الأمان اللذان لاقتهما في شرخ شبابها ، طاردتني الكوابيس مرة أخرى و أرقتني .

و عدت لـ " هاجر " ...

- يا ستي أنت سليمة ، ليس بك شيء لكنك تحتاجين للحب ، أنت امرأة مكتملة الأنوثة ، بل لديك فائض أنوثة جسديا وعقليا و روحيا ، هل تفهمين معنى هذا ؟ معناه أنك كأنثى زاخرة بكل ما فيك تحتاجين لرجل بكل ما فيه .

- لمرة واحدة كوني جادة ، أعطني منوما أو أي مهدىء ، أعطني شيئا

يجعلني أنام ، أريد أن أناااام بعمق !
- صدقيني أنا جادة ، تحتاجين للحب بكل معانيه و ضعي ألف خط تحت معانيه و يا سيدتي تزوجي و ارحمينا ، هل فرغت الدنيا من الرجال ! أنت تريدين رجلا بمعنى الكلمة ، رجلا يحتوي عقلك و قلبك ، صدقيني ، هذا هو دواؤك، لماذا ترفضين خطابك وهم كثر ! ما عيب مصطفى ؟ يوسطني لديك و ترفضين بإصرار ، لا أدري لِمَاذا ، سأظل أكررها تحتاجين رجلا ، أنا جادة ، هذا مجال عملي ، مثلك لا تعيش وحيدة ، أنت كثيرة الاحتياجات و متطلبة جدا ، هذه شخصيتك ، و بصراحة أنت سليمة و خصبة و استروجينك عال جدا لدرجة قد تدفعك للانحراف هههههههه .
- يا مجرمة .. بعد هذا العمر أنحرف ؟
- عُمْر؟ أي عمر يا عبيطة ! أنت في أوج عطائك ، آه يا للشرقيات الغبيات مثلك ! ألا ترين الممثلات الأجنبيات يتزوجن في الستين من عمرهن و يسعدن أزواجهن أيما سعادة ، هل أذكر أسماء ؟ جنيفر لوبز مثلا ، جوينيث بالترو ، تشارلي ثيرون ، أولسن هؤلاء حبيباتك يا هانم أكبر منك بردح و في قمة أنوثتهن ، و أنت في عنفوان شبابك و تقولين بعد هذا العمر ، و الله نحن نقصف أعمارنا بأنفسنا ، أنا أعاني بسبب ما ينخر في هذا المجتمع من مفاهيم تقتل الحياة خصوصا النساء - إي و الله..صدقيني - .
طيب هل تعرفين أن علاج أم كلثوم من مرض الغدة الذي أصابها ، كان الزواج ؟ أنت تحتاجين للزواج نفسيا وعاطفيا و فيزيائيا ، هناك شيء

ما هنا لديك - كانت تشير لرأسي - شيء يجب أن ينطلق و يفك عقاله و إلا أنت في خطر، صدقيني أنت إما ممسوسة أو سكتسوفرينيك أو شيء آخر لا أعرفه ، شيء يحتاج رجلا ليحتويه رجلا بحق ، أنت حالة نفسية عجيبة يا داليا و يوما ما سأجري عليك تجارب عميقة لأعرف ما الذي بداخل هذا الجسد الذي يتوق للاحتواء مهما أنكرت ، يا خايبة تحتاجين رجلا و لا عيب في هذا ، من منا لا تحتاج .!

ضحكَت و ضحكْت أنا لكلامها و سايرتها قائلة :

- و الشخص ده موجود هنا ؟

- بالطبع لا... يا صديقتي نحن في زمن الرجال فيه قليل، ألا تعرفين أن الدراسات أثبتت أن الكبت المجتمعي و السياسي يولد عجزا جنسيا ، ألا تذكرين الفيلم - عادل إمام - ياربي ما اسمه ! آه المهم أن الفيلم قائم ربما بالصدفة على دراسات علمية نفسية و حقائق نتعامل معها و نحاول علاجها ، البنات يعانين و السيدات أيضا ، فالرجال يخشون الزواج و أعبائه و المتزوجون .... مممم .. كثيرون منهم ضعاف جنسيا .

- يووووه هلكتيني بهذا الموضوع ، ألا تفكرين بسواه

- هذا تخصصي يا هانم و ياستي نعود إليك ، تزوجي يرحمك الله ، تزوجي و اركني رأسك الناشف على جانب ، مش لازم نحيا بالرجل المثقف ، ماله الرجل الطيب ، الرجل المحب ، الرجل الغني ، الرجل الرجل ، ما له أَفْهِمِيني !

هاجر كانت ترى فيّ امرأتين إحداهما قديمة جدا قدم روحي في حياة البرزخ قبل أن توجد في جسدي والأخرى مستحدثة ، كلما خضعت

واحدة رفعت الأخرى رأسها وهبت لتكافح و تذود عن نفسها و عن الأخرى .

كانت ترى أن هذا الإصرار الذي يغوص عميقا في باطني هو سبب وجودي و هو الذي أعطاني فرصة أخرى للحياة بعد الإذلال الجسدي و النفسي الذي تعرضت له و كان و ياللعجب ممنهجا و مدروسا لإخضاعي و إجباري على قبول ما لا يُقبل و كان سيودي بي حتما للانتحار هكذا تقول الكتب ، لولا شيء لا تعرف هي كنهه أنقذني ، شيء داخلي ، شيء آخر غير تعلقي بابني .

ما فعله بي نادر كان مدروسا طبيا و نفسيا بكل مراحله العلمية لإخضاع شخص ما بعد إذلاله و زرع الشك في قلبه و في نفسه ، في إمكانية حياته بعيدا عن جلاده ، الأسرى يعشقون جلاديهم، و الجلادون يعلمون ، و هذا سبب مراودتي لنفسي قبل الطلاق ، قبل أن تمنعني أناي !

كأن الدكتوراه التي نالها نادر، كانت في السادية التي مارسها عليّ ، كانت لإخضاعي له تماما كما اكتشفت فيما بعد .

كان هذا حتى قابلت عمر بعد سنين حسبتها دهرا كاملا ، كثيرا ما حاول لفت انتباهي حاول التقرب مني صددته في البداية صددته و قلبي يناوشني لأول مرة يعاندني و يحاول أن يتململ في صدري يعلن العصيان و برغم معرفتي و إلمامي بما يواجهه مع زوجته واصلت صده ، فالحكايات تتناثر هنا و هناك فقد زارته مرة هنا في المستشفى و عُرِف الكثير من خلال زيارتها دخلت مكتب " ثريا بنّه " مديرة المستشفى

لـتمعن في إثبـات صـلاتها و قـدراتها الكل الـتقط المعنى كانـت تتعمـد أن تظهـر للجميـع سـطوتها عليـه لكنني بعـد هـذا منعتُـه عني أكثر و أكثر و تماديـتُ أكثر ضـد قلبي أقمـع رغباتـه فحـين التقينـا كنـت مـادة خـام للتمرد و الـرفض إحساسي بنفسي الـذي عـاد لي ثقتي بتميزي الـذي زاد أخيرا إحباطي الشديد كل هذا خلق مني ذلك الكائن العنيد البائس .

ملامحي لا تظهـر شـيئا بـل تظهـر عكـس مـا تـبطن وجهي حيـادي حـذر إجابـاتي صـارمة صـادمة يراوغني فـألتزم الصـمت و يغـدو اهتمـامي بـه فجأة حياديا .

لـم يكـن يكترث لكل محـاولاتي للابتعـاد ، فقـد عـرف أنـه تمكـن من قلبي و أن الـوقت فقـط كفيل بهدم تلك القلعـة الحصينة ، و سـاعتها سـيبدأ رويدًا رويدًا فى ترويضي و إعادة خلقي من جديد ربما اسـتغرق هذا وقتًا و لكن ما أهمية الوقت و ما الحياة إن لم يحظ بامرأة مثلي ، كانت تلك كلماته التي قالها لي فيما بعد .

إن روح القـنص لـدى بعـض الرجـال تفـوق في متعتها متعـة الحـب ذاتـه ، تُرَى هل كان يستمتع بمطاردتي و عنادي ، هل يحقق النجاح في اصطياد طريدة عصية صعبة المراس كل هذا الحب و لذة الانتصار تلك المشوبة بتشـفٍ خفي ، هل للحب وجـه شـرير لا نعرفـه عـن أنفسـنا إلا حين نقـع فيه !

هو .....

فتحت لي الباب و هى ترتدى بنطلون و بلوزة قصيرة لها حجم دقيق و ملامح أنثوية ناهدة و شعرها كما هو مسترسل هادىء و وجهها بلا مساحيق سوى الكحل الذي أعشقه بيد أن ملامحها الدقيقة لها سحر أجهل كنهه ذهلت قليلا و أنا أتابع تفاصيلها أمامي فارتبكت ثم دعتني للدخول لحظات و خرج والدها حياني ثم خرجت و الدتها و جلسا معي لدقائق تبادلوا حديثا وديا عن الأحوال و الأمراض و الضغط ثم قام الأب بعدها فتساءلت محرجا : على فين يا عمي قالت الأم :

- معلش هيستريح شوية و أنا هاعمل لكم العصير إحنا جنبكم هنا نورتنا يابني .

لا أدرى ماحدث لي عندما نظرت بعينيها تلك المملوءة حنانا و تفهما .

قلت بلهفة : " مدى يديك " ألقت لي بنظرة مستفهمة فهمست : " بسرعة مدى إيديكِ " ، مدت كفيها الصغيرتين أمامي فأمسكت بهما و قربتهما لوجهي ثم ملت للأمام و أنا ألثمهما و أشم عبيرهما و هي مذهولة تحاول أن تفلت يدها فلا تستطيع استسلمت و هي ذاهلة ثم تحولت نظراتها لشفقة و حب و أنا منهمك في لثمهما حتى سكن وجهي بين كفيها حين سمِعَت نحيبا هامسا و وشيجا ، كان بكائي الذي لم أستطع منعه بكيت بحرقة كما لم أبكِ قبلا لم تشعر إلا و يداها و كل أطرافها كقطع من الثلج بيد أنها استسلمت لتشبثي بيديها فلم تعد تحاول الإفلات مني .

بعد هنيهة همست لي برقة معتذرة : " عمر ماما جاية " أفقت على صوتها فابتعدت و تركت يديها و أخرجت منديلا من جيبي و مسحت عيني و اعتدلت فى جلستي .

قدمت الأم العصير ثم انسحبت قائلة :

- معلش عمك الحاج تعبان شوية هاروح أشوف طلباته و أنا هنا جنبكم لو عاوزين حاجة أهلا وسهلا بيك يابني .

بادرتني : مالك يا عمر حصل ايه ؟

اندفعت أحكي لها كل التفاصيل التي تؤلمني كل الكلمات و التعبيرات التي ذبحتني بها زوجتي حكيت لها حكيت و استفضت كأني أعترف بين يديها أتطهر ، أتعرّى فتغسلني ببراءتها كانت تستمع بتفهم بحب لم تكن قاضٍ و لا حكم كانت تحسن الاستماع تريد أن تعرف كثيرًا تنظر لي بعينيها الربانيتين فتفهمني تغفر و تعذر تصفح الصفح الجميل كآلهة ، ربة في ملكوتها أوليس الرب فقط هو من يعرف كثيرا فيغفر كثيرا ؟ بلى كانت تفعل .

حكيت لها عن تورطي في زواجي و رضوخي لأبي ، و شائبة من طمع داخلت نفسي فوافقت ، حكيت لها أني سددت فواتيري كاملة ، و لم يبق إلا أن أغفر لنفسي و لأبي و ليغفر الله لنا .

- الغريب أني فوجئت أن ابنتها موافقة متفقين عليّ ، طيب على الأقل لمّا أكتبهم لبنتي اللي بتقول إنها خايفة عليها مش ده تحايل على شرع ربنا مش هي دي اللي أبوها عامل فيها ظل ربنا على الأرض ، بتاع ربنا يعني ، اللي عامل جماعة باسم ربنا و مدارس إسلامية باسم ربنا و كله باسم

ربنا و ربنا برىء منهم اسأليني أنا كل فلوسي باسمهم في البنك أو داخلة مع أبوها بيهم شراكة في الخليج و قطر و معرفش عنهم حاجة أنا يا داليا عايش بمرتبي كل ما أملكه من سيولة باسمها هي و بنتها و فيللا شرم كله كله .. و كل ما لدي كمان الفيللا بتاعت أبويا و أخويا له نصيب فيها و سايبه بمزاجه خايف عليا من غدرها صدقيني ، أكتبها باسمهم ليه ؟
كانت تسمعني و هى هادئة و على وجهها تعبير حزين و مشفق ثم قالت : عندى حل وسط اكتب لابنتكما نصف الفيللا النصف الذي تملكه لترتاح يا عمر .

- بتقولي إيه هما و رثوني بالحيا ؟

- ربنا يخليك لهم ، أنت بالفعل كتبت لهم كل شيء ، أنا عاوزاك تركز في شغلك و متبقاش واقع تحت ضغط و واضح إنها بتعرف تضغط .
قالتها بنبرة مميزة ، تراجعت بظهري و اندفعت أضحك بعصبية
ارتبكت و قالت : بتضحك ليه ؟
توقفت عن الضحك فجأة و أمسكت يدها مرة أخرى قلت لها بجدية : اسمعيني كويس الضغط الوحيد اللي بتمارسه عليا هو نادين بنتي أما غير كده فاحنا طول عمرنا أنا و هي إخوات و أخوة أعداء كمان .
تضرج وجهها بحمرة و سحبت يديها و تراجعت بكرسيها و لكني أكملت ساهما : " هتصدقينى لو قلت لك أنها عمرها ما لمست وجهي أو كتفي أو حضنتني هتصدقي لو قلت لك عمرها ما فكرت تاخدني في حضنها أو أمسك إيديها ؟ تفتكري إني راجل لايفكر إلا بنفسه و طلباته ؟ أبدا أحيانا بل طول الوقت لايطلب الرجل إلا أن يضع رأسه على صدر من

يحب و يبكي أو حتى يلجأ لحضنها ، ستكون تلك لحظة يمتلك فيها الدنيا و مافيها مجرد أن يضع رأسه على صدرها و تربت على وجهه أو تتلمس شعره لم أشعر و لا مرة بتلك المشاعر و لا هي دعتني و لا أنا أريد خلاص كرهتها و كرهت رجولتي و احتياجي نجحت في هزيمتي كسرتني أمام نفسي لم يستطع أحد أن يعيد أشلائي سواكِ .

كان وجهها ما زال متضرجا بحمرة شديدة و لكن الحزن كان طاغيا .

قمت واقفا فجأة و قلت لها : خلاص أنا ارتحت مجرد ما حكيت لك ، هل تعرفين أسطورة إيزيس هي الوحيدة التي استطاعت إحياء أشلاء حبيبها أوزوريس، و أنت ... أنت الوحيدة التي استطاعت لملمة أشلائي لما لا نتقابل في مكان آخر أريد أن أكمل حديثي " ؟

- بكرة إن شاء الله نتفق يا عمر .

طأطات رأسي مستسلما لمشيئتها كطفل مطيع و توجهت نحو الباب و هي ورائي ، التفت لها قائلا .:

- سلامى لبابا و ألف لابأس عليه .

هزت رأسها مبتسمة فكانت ابتسامتها كغدير منبثق فجأة في صحراء حياتي ، انتابني حب غامر لتلك المخلوقة التي تواجهني بعنفوان أنوثتها و تسامحها غير المشروط .

و في لحظة خاطفة طوقت خصرها بيدي ضممتها إليَّ بشدة لثانية شلتها المفاجأة حاولت التملص مني لكني لم أكن لأفلتها كنت ساعتها أطبع على شفتيها أول قبلة ، قبلة عميقة ، شفتاها تستحقان ، التقمتهما بحب

شـديد كنـت أنتظـر تلـك اللحظـة منـذ وقعـت عينـاي عليهـا لكـم راودت أحلامي و يقظتي !

ارتعدت بين يدي كعصفور يهزه الندى لأول مرة ، تلك الرعدة تعني أنها لم تذق مثلها قبلا ، ردة فعل شفتيها تؤكد أنها بكر المشاعرأودعتها قبلتي بكل حبي و كل عذابي و كل رجولتي المرهقة ، كادت تذوب بين يدي ،

كيـف لامرأة أن تحـوز كل هـذا الخفـر و الـدلال و الخجـل و الرغبـة مرة واحدة في شفتين عذراوين ! " عمر " نطقتها هي برعب فتكسرت حروفها بين شفتي ، شهقت تحاول إبعادي ، لكني كنت تمكنت منها .

يـدها تحـاول أن تفـك قبضـتي لكنهـا لـم تقـو علي يـدي اللتـين تشـبثتا بخصرها الدقيق و هي تتمتم و شفتاها ترتعشان بين الرغبة و الخجل و الحروف تتفكك مرة بعد مرة في فمي ... عمر .. عمر.... تركتها و أنا أحاول التماسك .

قلت و ما زالت النشوة تثقل رأسي لثوان كأنها عمر بأكمله : عمر بيحبك يـا داليـا ، سـامحيه ، ثـم أسـرعت خطـاي و أنـا أكـاد أقفـز على السـلم هتفت ورائي : الأسانسير يا عمر ، علا صوتي :

أنا طاير .. أسانسير ليه ؟

هي ....
" أنا لحبيبي"

تلفتُّ حولي لأرى إن كان هناك أحد من الجيران كان موجودا بالصدفة أو تصادف نزوله فلاحظ شيئا ، وحين اطمأننت أسرعت بغلق الباب و صدري تتلاحق فيه الأنفاس كأني كنت أجري و قد أسندت ظهري عليه .

لا أدري كم من الوقت مضى لحظات أو دقائق حتى استجمعت فرائصي المرتعدة و دلفت مسرعة لغرفتي و أغلقت عليّ بابها وقفت أمام المرآة أتأمل تلك الشفاه التي لامستها - لأول مرة - شفاه رجل على هذا النحو تلك المشاعر لم أعرفها قبلا ، وجهي المخطوف ، أشعر باشتعال قلبي كما لم يشتعل و .. نمت .. نمت نوما عميقًا بعدما كان يجافيني النوم و يعاودني الأرق كصديق وفيّ ، نمت كما لو أني لم أنم منذ دهر .

استيقظت فى صباح تلك الليلة حالمة مستسلمة لتيار غريب يسري بي كأنني لم أستفق بعد ، أسترجع ماحدث بالأمس ، بكاؤه بين يدي ، أتذكر حينما التقت دموعنا لأول مرة و كان لقاؤهما حارا .

مشاركة الأحزان الخاصة جدا تخلق نوعا عاليا من التواصل ، من الحب ، فلا يصبح مجرد مشاعر حب عادية بل تواصل إنساني روحي يجعل التلاقي متعة في حد ذاته حتى لو لمجرد السرد و الحكي فأصبحنا دون قصد كيانا واحدا ، آلامي و آلامه ، حرماني و حرمانه ، اكتفاؤنا بالتواجد قريبا من بعضنا بعضا ، يا له من شعور لم أحسه قبلا !

و تحت زخات الماء المتتالية على رأسي وجدتني أدندن أغنية فيروزية تتماشى مع حالتي المزاجية " أنا لحبيبى " عندما تذكرت قبلته الخاطفة شعرت بقلبي يرتجف و بسخونة تعتريني رغم وقوفي تحت الماء ، أغمضت عيني و استسلمت لتلك القطرات المنسكبة على مشاعري .

وقفت أمام المرآة أتأمل لأول مرة هذا الكيان لم أكن يوما من اللواتي يعجبن بأجسادهن و يقفن بالساعات أمام المرآة للتجمل و التفقد لكني أشعر أن هناك شيئا ما يزيدني ألقا و أنوثة ، ظل السؤال يلح علي و يطاردني ما علاقة ضحكته الخشنة البريئة بتفتح النوار في بساتين أنوثتي !؟

عرفت ساعتها أن الأنوثة لا تكتمل إلا بحب قوى غامر ترتوي منه الروح فيزدهر الجسد هذا هو التفسير الوحيد لنظرات الإعجاب و " الدهشة الخبيثة " التي ظهرت فى عيون زميلاتي و هم يروننى أتقافز كعصفور صغير ينتقل من مكان لآخر ناثرا شذى سعادته حتى على وجوه المرضى و كيف لا و حالة الطبيب النفسية تنعكس سلبا و إيجابا على مرضاه - آه للنساء و فطنتهن و تلميحاتهن الجريئة - .

لاحقتني الأسئلة .. مالك ؟ إيه الحلاوة دى ... فيكِ شىء متغير .. سحبتني من ذراعي الدكتورة نيفين - طبيبة الأطفال - و تساءلت بابتسامة ماكرة : إلا أنا تخفين عني ما لا يخفى على خبير ، نظرت لها باسمة فتابعت : هذه الحالة من النضارة و الألق و الانطلاق لها سببان و ليس غيرهما إما الحب و إما - ضاحكة – الحب .

انفلتّ من بين يديها و ابتسامتي لا تفارقني ثم همست لها بخفة : هو الحب .

نيفين : حتى الدكتور باسم انتبه لهذا التألق المباغت .

داليا : باسم ؟؟

نيفين : بت انتي... يعني لم تلاحظي ؟؟ يأكلك بعينيه كلما مررت بجانبه أو تحادثتما .

داليا : نيفين إنت اتهبلت ، إنه طفل ابني صار أطول منه .

نيفين : طفل ؟ طيب خدي دي : مفيش طفولة خصوصا اليومين دول ، كما أن الرجل يولد رجلًا ، لو لاحظت أي طفل منذ نعومة أظافره يلتفت للجميلات و يكون رد فعله كطفل إما الاقتراب منهن و تأملهن و ملامستهن و الاستسلام لقبلاتهن و إما الخجل الشديد منهن ، في الحالتين هو يشعر برجولته و أنوثة المرأة التي تقف أمامه ، أتكلم عن أطفال في عمر العامين فما فوق و أنت تقولين على باسم طفل لأنه تخرج منذ بضعة سنوات ؟!

داليا : بس بس .. انتم جرالكم إيه ؟

نيفين : - باستغراب - انتم مين ؟ ...لاااا تعال إحكِ لي .. فيها لأخفيها ... انت عارفاني أمووت في النميمة .

داليا : طيب اسمعي .. بعدين أحكي لك ما تفعله بي هاجر أنتما توأم في الدماغ بجد.

نيفين : هاجر لطفي ؟ انت لسه بتشوفها ؟

داليا : كثيرا ، هي صديقتي .

نيفين : أعلم طبعا فقد كانت الدفعة التي سبقتني ، أمازالت بعبقريتها و لطشة الجنون التي تميزها ؟

داليا : كما هي لم تتغير و الله " بحطة إيدك " .

نيفين : إذن هو لقاء بين ثلاثتنا نستعيد فيه أمجاد الماضي و نثرثر فيه كأننا نساء !

داليا : كأننا ؟!

نيفين بتنهيدة : نعم هذا العمل ينسينا كثيرًا أننا نساء نحتاج الحب و التدليل و نعشق الثرثرة و التسوق و نحلم بالحب و الرجال .

داليا ساهمة تنظر للفراغ : نعم لقد نسينا الكثير من مظاهر الحياة لأسباب كثيرة .

كنا أمام غرفة الاستقبال نتهامس أنا و عمر حين لمحت " مجاهد " يتهادى من آخر الممر ببذلته الأنيقة التي لا أدري من أين يأتي بثمنها سمعت أن له مشاريع كثيرة و البعض قال إن لديه شركة صرافة ، و صاحب شركة الصرافة ما الذي يفعله في مستشفى !

غموض عجيب يحيط بتلك الشخصية الأفعوانية ، أقبل وعلى و شفتيه ابتسامة لزجة ، أكرهه ، أكره نظراته الرخيصة قحته التي تنضح من كلام منمق يضعه دوما في صيغة قال الله و قال الرسول ، لا أرتاح لتلك الذقن لا أراها دليلا على شيء سوى كراهية شفرات الحلاقة ، عصفورة الدكتورة ثريا والكل يعرف .

مزيج من النعومة في الكلام و اللزوجة لا تتماشى مع " زبيبة " تزين رأسه الأصلع ، بعد أن حاول معي - أول عملي - أن أتخذه صديقا نظرا لعلمه الديني و خبرته الدنيوية الغزيرة - وفقا لكلامه ساعتها - و كم ألمح لي مرارا بإعجابه و توسمه فيَّ الخلق و أنه لا ينقصني سوى الحجاب !

لم أكن أرى أن شيئا ينقصني على الأقل في مظهري كان تطفله يثير أمعائي حاول كثيرا التودد بشتى الطرق إلا أنه لم يجد مني غير الصدود و النفور فانكفأ على مقصده و الغل يأكله و يحصد ما بيننا من زمالة .

- بنبرة تتصنع الوقار قال : دكتورة داليا ... دكتورة ثريا عاوزاكِ .

ثم نظر لعمر و أكمل جملته : إزيك يا دكتور إيه الحلاوة و الشياكة دي ، إنت اليومين دول - ماشاء الله - عيني عليك باردة تغير للأحسن و الأشيك نظر له عمر باحتقار و لم يرد عليه .

- و إذا حييتم بتحية يا دكتور ، و لكن عمر لم يعلق أيضا .. حاولت فض الاشتباك في النظرات بينهما و التي بدأت تشتعل و تثير المخلوق الهلامي الواقف أمامي .

- طيب أنا رايحة لها يا أستاذ مجاهد

استدار وعاد في حين شيعناه أنا و عمر بلعنات سرية و احتقار واضح .

- أنا قلقان يا داليا أعتقد إن فيه حاجة هتحصل أول ما تخرجي كلميني أنا هابقى في العيادة هامشي دلوقت .

- قلقان من إيه ... ما تفهمني ...

- بعدين هتفهمي ، المهم تكلميني فورا أول ما تخرجي من عندها لأني ماشي على طول .

- حاضر يا عمر .

اتجهت إلى الدور الخامس الدور المخصص بالكامل للدكتورة ثريا أحيانا تبيت داخله جهزته بتجهيزات خرافية لها فيه جناح كامل .

دخلت عليها كانت منهمكة في الكتابة على جهاز الكمبيوترأو هكذا بدا عليها

- مساء الخير يا دكتور .

- بدون أن تلتفت لي مساء النور يا دكتور داليا اتفضلي ، جلست و أنا أترقب أن تنتهي حتى انتهت مما يشغلها أو بما ادعت أنه يشغلها .

- أخبار الشغل إيه ؟

- الحمدلله يا دكتور كله بخير .. خيرا .

- ما هذا التعجل .. تشربي إيه ؟

- معلش لأن لدي بعض الحالات التي يجب أن أنتهي من مراجعة تطوراتها وتنزيلها على "السيرفر" .

هزت ثريا رأسها بشكل مبالغ فيه و قالت : برافو عليكِ نشاطك و اهتمامك بعملك هو في الحقيقة من أهم الأسباب التي دعتني للعرض الذي سأعرضه عليك .

علامات الاستفهام على وجهي ، و لكني ظللت صامتة و عيناي معلقتان على وجهها المصبوغ كي تكمل حديثها .

- إنت عارفة إن المستشفى عاملة شراكة مع مستشفى الشفا بالإمارات و فرعها في قطر و الكويت دلوقت فيه فرصتين في الكويت و قطر أنا رشحتك لهم اختاري بينهم .

- أنا ؟

- أيوة مجتهدة و محترمة و مش بتاعت مشاكل واجهة رائعة لفرع المستشفى في مصر .

- يا دكتور ده عرض مغرٍ جدا .

- اصبري لسه الإغراء مجاش المرتب كبير و السكن و الإقامة فول بورد على حساب المستشفى يعني فلوسك و مرتبك بيتحوش كله إنت عندك ابن على ما أعتقد و قدامك العمر و المستقبل هناك واعد ، لو حسوا باجتهادك هتترقي و هيبقى الوضع مختلف إنت عارفة هناك الهوس بالتجميل و عملياته وصل لمرحلة المرض ، و لعلمك أول ما هتوصلي مجاهد هيرتب لك كل حاجة .

- مجاهد ؟!

- أيوة مجاهد إياك تستهيني بيه مجاهد ليه صلات قوية في قطر ده رجل أعمال بس مرتبط بالمستشفى لأنه شريك فيها صحيح بأسهم بسيطة إنما شريك و يتمنى - بلهجة ذات معنى - يتمنى يخدمك متتصوريش بيقدرك إزاي !

" معدتي تؤلمني ، و في سري كنت ألعن العاهرة " -

- و الله فعلا عرض مغري جدا لكن ....

- لكن ؟ لكن إيه يا داليا ؟ ده عرض ميتفوتش .

- حضرتك عارفة إن عندي طفل بالطبع والده هيرفض سفره كمان والدي و والدتي مالهمش غيري و مستحيل يوافقوا يسافروا في العمر ده معايا بره مصر ، مقدرش أعيش من غيرهم .

- رأيي تفكري في العرض إن كان على جوزك - قصدي طليقك - سيبيهولي مهما كان هو زميل و بيننا أصدقاء مشتركون و مامتك و باباك مالهمش غيرك مهما رحتي تقدري تاخديهم ياستي ارجعي لهم كل كام شهر ، الموضوع مرن جدا .

- معلش بس لي سؤال

- خيرا ؟

- ليه حضرتك متعرضيش العرض ده على حد من الزملاء الشباب مصطفى ، مينا ، كلهم ممتازين ، هم رجال يقدروا يسافروا و يبقى الوضع أسهل لهم .

- إنت كمان مميزة لأنك غير متزوجة يا داليا و أنا أحب أشجع المرأة على النجاح .

تنهدت و قد سيطر علي شعور بالقرف اعتصر معدتي حتى عجزت عن الكلام و بان رفضي على وجهي ،زمت ثريا شفتيها كعادتها حين تقرر أمرا.

- يعني بترفضي رفض نهائي و لا هتفكري ؟

- للأسف ياريت تعفيني يا دكتورة و طبعا متشكرة جدا و ممنونة إنك فكرت فيّ و وثقت بقدراتي لكن للأسف ظروفي مترشحنيش .

انقلب وجهها واستدارت نحو جهاز الكمبيوتر قائلة اتفضلي على شغلك و انسِ الموضوع .

- استدرت نحو الباب و قبل أن أفتحه سألتني .

- دكتورة داليا : كيف حال الوالد .

التفت لها بكل جسدي مستغربة : والدي بخير .

- سمعت أن أمن الدولة يستدعونه باستمرار لشرب القهوة .
كما تعلمين لي أصدقاء هناك و أعرف الكثيرين لو أراد شيئا أخبريني في وسعي أن أوفر عليه تلك الزيارات المتعبة لمن هم في مثل سنه .
أطبق علي صمت وارتعب قلبي ولكني لم أظهر إلا برودا وتجاهلا برغم هلعي من تهديدها المبطن .
- شكرا لك : والدي لا يحتاج لواسطة إنه عالم مشهور و له جمهوره و هو ثروة للبلد لا تقلقي علينا .
صفعت الباب خلفي و أنا أهتز غضبا .
خرجت من عندها مذهولة لرد فعلها الغريب و قحتها في الحديث عن مجاهد و تلميحاتها الحقيرة العاهرة المسن كيف تجرؤ ، وعرضها الأغرب و كلامها عن أبي .
اتصلت بعمر بعد خروجي من مكتبها كما أوصاني و حكيت له ما حدث .
- يبقى اللي فكرت فيه حصل .
- يعني إيه ، مش فاهمة .
- ثريا عاوزة تزيحك من طريقها يا داليا .
- طريق إيه و أنا إيه علاقتي بيها .
- علاقتك وثيقة إنت لحد دلوقتي مفهمتيش ؟ ثريا عاوزاني ، فهمتِ ؟
- عاوزاك يعني إيه ؟
- عاوزاني زي أي ست ما بتعوز راجل .
- بتقول إيه يا عمر! مستحيل ، اللي بتقوله ده مستحيل .
- أنا مش بقول تخمينات ، ثريا قالتها صراحة و أنا اعتذرت بنفس

الصراحة و في الغالب الكلام عنا وصل لها و قررت تزيحك من طريقها و الخوف مش في اللي حصل دي كانت محاولة قبل ما تقرص قرصتها إنت متعرفيهاش زيي ، لكن الغريب إنها تدخل والدك على الخط واضح أن الموضوع فيه خيوط متشابكة .

- يعني إيه ؟ وضّح لي .

- بصي هي علاقتها بأمن الدولة معروفة من سنين لو قلت لك من أيام ما كانت طالبة في السبعينات مش هتصدقي لكن كونها تتكلم عن باباك و الربط بينه و بين اللي قاله لك قبل كده و الكماشة اللي عملوها عليه من كام سنة يبقى حاجة من اتنين يا إمّا متوصية عليكِ من حد في الجهاز بسبب موضوع باباك يا إما العكس موصية عليكِ حد هناك ، لكن الأقرب للمنطق إنها الأولانية يعني متوصية عليك ، مش معقول لمجرد إنها عاوزة راجل ، تضطهدك كده إلا إذا بالصدفة لقت مصلحتها متشابكة مع مصلحة الجهاز نفسه ، فاهمة حاجة ؟

- للأسف فاهمة لكن أنا مذهولة مش مصدقة ، ثريا ؟!

- إنت لازم تسيبي المستشفى في أسرع وقت .

- هتعمل لي إيه يعني ؟

- تعمل كتير و الأمثلة كتير و المرة دي سمها هيبقى قاتل لأن غريمها مش دكتور اتحداها و لا بوّظ لها شغل ، المرة دي هتبقى حرب غاية الخسة و الإجرام ، حرب من كل الجهات عليك إنت و باباك ، حرب مش نظيفة بالمرة ، أنا أعرفها أكتر منك مش هتقبل بالهزيمة ، على الأقل هتضيع الصفقة على غريمها زي ما اتحرمت هي منها و تعمل خدمة للجهاز

و ورقة ضغط لوقت عوزة ، البلد فيها حاجة مش مريحة أصلا عمالين يِستَعْدوا عليهم الكل و يفتحوا جبهات مع الكل ، بيلطشوا يعني .

- صفقة إيه ؟ إنت بتخوفني أوي يا عمر .

- يا ستي أنا جزء من الصفقة و باباك جزء تاني ، افهمي بقى .

لم يكن خوفي من فراغ بل كنت على حق فقد حملت الأيام القليلة بعد لقاء داليا بثريا نذر كارثة تهدد مستقبلها و قد تنتهي بفصلها من النقابة بما لثريا من صداقات و علاقات بأهم أعضائها والتي يسيطر عليها الفصيل الإسلامي ، و الكل يعرف أن علاقتهم بالنظام - رغم توترها - فإن مصالحهم المشتبكة ماليا غالبا ما تنتصر و كما يقولون " المصالح بتتصالح " ، و هي – ثريا - أسطورة الطب الاستثماري و لا سيما في دول الخليج .

- بالفعل لم يمض يوم و اختفى من مكتب داليا ملف سري لمريض ، و كل مرضانا أو جُلّهم يحرصون على السرية التامة لشهرتهم و لحساسية العمليات التي يقومون بها خوفا على مستقبلهم المهني أو مكانتهم و هذا المريض كان رجلَ أعمال و عضو مجلس شعب له حظوة لدى البلاط الجمهوري ولدى الابن و الذي يرتبط بصلات وثيقة مع رجال أعمال مقربين هم أيضا من النظام .

الملف ذهب بتفاصيله لغريم المريض و منافسه الذي رفع قضية ضده يطعن بتزوير نتائج انتخابات الدائرة التي جمعتهما و جاء الرجل للمستشفى و بحث عن داليا مهددا ، وظل يصيح و يهدد بضياع مستقبلها بعد أن يشكوها للنقابة .

قررت ثريا التي لم تكذب خبرا عمل تحقيق إداري ترفعه للنقابة ، لم يكن ما حدث غريبا فقد توقعت انتقاما يليق بحقارة ثريا و نهمها لكل ما في يد غيرها ، الغريب كان ثبات داليا صمودها أمام العاصفة ، لم تخبر والدها حتى لا تربكه و تجبره على تقديم أي تنازلات و قررت خوض المعركة بقوة تحسد عليها و ربما لتلك الصلابة المفاجئة التي اعترتها ساعدتها الظروف بشكل غير معقول و تواكب صدامها مع زلزال هز الدنيا ، ربما حزنا على مخلوقة مثل داليا و غيرها كثيرون .

لم يكن التحقيق مع داليا داخل المستشفى إلا فضيحة بكل معانيها فضيحة رتبتها ثريا و قد تصورها بالصوت و الصورة للضغط على والد داليا أو داليا نفسها .

كان اجتماعا ضم زملاءنا الأطباء و غرابها الناعق مجاهد المدير المالي و ممثل الشئون الإدارية بالمستشفى الذي كان وجوده معناه استفزاز داليا لتقديم استقالتها في الحال لم تكن خناقة على رجل بقدر ما كانت استعراضا للقوى و عنادا يستعر بين تلك المخلوقة الرقيقة في كفة و بين ديناصورات و أباطرة النفوذ و االمال و الحكم في كفة واحدة ومعهم طائر الرخ – ثريا -

- أنا مستغربة إن الإهمال ده يحصل منك إنت يا دكتورة داليا أنا أفضل أسميه إهمال لأني مستحيل أصدق إنك متورطة في تسريب تفاصيل ملف مريض لحد بمقابل مادي .

- الأكثر غرابة يا دكتورة إني مش فاهمة هو ده تحقيق معايا و لا اجتماع القصد به إحراجي و الأوْلى نعرف مين من مصلحته يسرق ملف

من ملفات المرضى بتوعي من مكتبي و الملف ده بالذات مين عنده صلاحيات يدخل و يفتش و يصور ملف خصوصا إنها مش أول مرة يُتّهَم طبيب بكده هنا و مين بيني و بينه عداوة هو بس يعرف أسبابها ؟!

مجاهد : تقصدي إيه يا دكتورة ؟

التفتت له داليا بغل قائلة :

ممكن أفهم وجودك دلوقت بصفتك إيه و بصفتك إيه بتتكلم و تسألني ؟ لا أنت طبيب و لا من الشئون القانونية ، حضرتك من الشئون المالية و أنا مش متهمة باختلاس ياريت نعرف كلنا وجودك النهارده سببه إيه ثم التفتت لثريا : محدش بيدخل على ملفات المرضى إلا الطبيب الشخصي و المسؤول المالي و الآي تي دول بس يقدروا يدخلوا على السيستم و يشوفوا الملف السؤال بقى ليه أنا فقط الموجه لي الاتهام لا معانا المدير المالي و لا الآي تي لأن بالتأكيد مش هما المقصودين .

أسقط في يد مجاهد و التفت لثريا يستنجد بها : أنا نائب الدكتورة ثريا الإداري و المالي .

داليا ساخرة : نائب ؟

مصطفى : أنا متضامن مع دكتورة داليا الاجتماع ده مش مفهوم و محدش قال لنا إنه لمحاسبة داليا .

مينا : و أنا كمان متضامن مع داليا و بسأل حضرتك عن وجه الشبه الغريب بين الواقعة دي ووقائع تانية كتير آخرها حادثة الدكتور مارك بشري ابن عمي و اللي قدم استقالته لنفس السبب تقريبا - باختلاف الوقائع - .

كان وجه ثريا يتضرج للون أحمر قاتم وهي من اعتقدت أن الاجتماع هدفه الرئيس إجبار داليا على الاستقالة فإذا به ينقلب ليصبح اتهاما يكاد يكون مباشرا بتلفيق التهم للأطباء .

- اسمعوا يا دكاترة : أنا مش هاسمح لأي حد يشوه سمعة المستشفى ، الدكتورة داليا أهملت - ثم بلهجة ذات معنى- و يبدو إن الشغل مبقاش همها الأول خلال تواجدها بالمستشفى ده غير كلام تاني كتير ميصحش نتكلم فيه ، انتفضت داليا صارخة وهي تخبط بقبضتها على المائدة التي تجمعنا : أنا لا أسمح لأي شخص إنه يخوض في كرامتي و أعتقد الكل يشهد لي و أعتقد كمان أن الاجتماع ده فقد مغزاه و نزل لمستوى يخليني أرفض أكمله و لو حد عنده شكوى معينة يقدمها رسمي يا دكتورة حضرتك أكبر من التلميحات و التجريح و لا يليق بمركزك و لا سنك .

- كانت طلقات الرصاص التي تطلقها داليا من شفتيها من الصحة و القوة التي ألجمت ثريا و لا سيما تذكيرها بسنها ، قد تغفر المرأة أي كلام إلا ذلك الذي يذكرها بعمرها الحقيقي و يلمح لتقدمها في السن تلقت الرصاص و عيناها تشتعلان غلا . صاحت :

- إنت بتقولي إيه ؟ إنت بتكلميني أنا كده ؟ و أنا اللي خايفة على مستقبلك ؟

- أيوة بكلمك إنت كده و مش هاسمح لك و لا هاسمح لأي حد إنه يزايد لا على أخلاقي و لا على نزاهتي مهما كان - ثم وبضغط على حروف

كلامها – و مهما كان من وراؤه .
- كنت أشاهد الموقف وعقلي يعمل لامتصاص غضب ثريا قبل أن تنفث سمها في داليا و كان أي رد فعل عنيف من جانبي سيؤدي لنتيجة معاكسة داليا و والدها بين فكي كماشة أكاد أراها رأي العين .
قد يختطفونها أو يقتادونها لمكان مجهول ، لطالما فعلوها و قد يفعلونها إذا ما شعروا بخطرهم قادرون و ثريا بنه قادرة فعلتها قبلا في ظروف لا تقل قبحا عما هو الآن ، في ستينيات القرن الماضي ، و الآن ستتلاقى المصالح و تتصالح للضغط على الدكتور عبدالرحمن وبنته تراءى كل هذا لذهني وأسوأ .
أما داليا فقد كانت تهدر بقوة لا أدري من أين أتت بها و قد أصبح الموقف أكثر اشتعالا و بدأ بعض الأطباء ينحازون لداليا حين سرت همهمات بينهم فعلا ميصحش كده محدش يآمن على نفسه ، داليا عندها حق .
داليا : ده كلام أنا لا أسمح به ولا أقبل أن تقولي هذا فإذا كان هذا تحقيقا قانونيا فلنبدأه بشكل قانوني .

مصطفى : اللي بيحصل ده هيخلينا نفتح ملفات كتير علشان التحقيق يبقى موسع يا دكتورة ثريا ، ملف الصيدلية و الأدوية المخدرة اللي بتختفي أو بتقل و بنلاقي أسامي غريبة على روشتات غريبة مكتبناهاش و ياما اشتكينا لحضرتك و متخذتيش أي إجراء كل مرة كنت بتهوني من الكارثة .

مينا : و ملف الدكتور مارك بشري الصيدلي اللي استقال من المستشفى بعد سرقة الأدوية فعلا من صيدليته و في ورديته و من جوه المستشفى تحبي أفكرك إزاي اتسرقت من عهدته ؟ و إصرار المدير المالي " مجاهد بيه " إنه يمضيه على أدوية و مستلزمات طبية منتهية الصلاحية بحجة إن مفاتش وقت كبير عليها و إنها صالحة للاستخدام و هو رفض و رفض كمان يمضي على أسعار مستلزمات رخيصة و جودتها سيئة على أساس إنها أعلى جودة و بسعر نار يتحط طبعا على فواتير المرضى ها نكمل يا دكتورة و نفتّح لبعض و ننشر الغسيل و للّا إيه ، الواحد خلاص مبقاش مستحمل الريحة فاحت أوي ، البلد بقت صفيحة زبالة كبيرة .

- صرخ مجاهد : كذب .. كذب .. قريبك ده يا مينا ....

صاح مينا : دكتور مينا يا أستاذ مجاهد .

جز مجاهد على أسنانه و أكمل : فليكن .. دكتور مينا ، قريبك ده كان مفروض مصيره يبقى السجن لولا صعب علينا ياريتنا سجناه الشهود موجودين و الورق كله ضده كان فاكر إنه علشان بيكتب في جورنال معارض ممكن يخوفنا ده حتة عيل اتلم على شوية هواة و فاكرين إنهم هيغيروا الأوضاع بكرة تتلموا كلكم في السجون

- مصطفى : معتقدش إن جات لكم فرصة زي دي و تغاضيتم عنها إلا لسبب مهم جدا غير الصعبنيات دي يا مجاهد .

مينا صارخا : إحنا خلاص استكفينا و مش هنسكت أبدا و حرب بحرب و قرف بقرف .

كانت ثريا قد شعرت لأول مرة أن التصعيد ليس في صالحها فخفت صوتها و تهدج وهي تقول - متجاهلة كل ما تفوه به مصطفى و مينا - أنا لحد دلوقت مبلغتش النقابة و بحاول أحتوي الموضوع مع أهل المريض فقط حفاظا على سمعة داليا و مستقبلها

- قالت داليا بسخرية ممرورة : و أنا مقدرة لحضرتك ده و ياريت مساعيك دي تنتهي على خير و تحتوي الموقف لأني مش ناوية أسيب المستشفى و يوم ما أسيبها مش هاسيبها بفضيحة متلفقة لي مهما كان اللي ورا الفضيحة دي .

قالتها وهي تحرك عينيها بين مجاهد و ثريا و عيناها تطق شررا ، و كان هذا هو وقتي الأنسب للكلام - قبل أن أسقط من نظر داليا –

- أنا متضامن مع الدكتورة داليا و شايف إن الموضوع لا بد نلمه و من الأفضل لنا و للمستشفى إن مشاكلنا تتحل بعيدا عن النقابة يا دكتورة ثريا لأن حضرتك عارفة إن مخالفات المستشفى ممكن أي حد يسربها زي ما بتتسرب الإشاعات و بتتسرق الملفات .

كان وجه ثريا قد اسودّ و غام تماما بعد أن سمعت كلامي .

نظرت لي داليا و قد استبدت بها قوة لا قبل لأحد بها كأنّ ماردا تم فكه من عقاله رأسها مرفوع بكبرياء و ثقة جعلت الكل يفتح فاه مذهولا ، تلك اليمامة الناعسة التي تثير فيك مشاعر التعاطف تلقائيا لرقتها ، تحولت لطير جارح ، تذود عن نفسها عن كرامتها بثبات و ثقة .

عيناها اللتان تشبهان عيني نبية أصبحتا عينيْ صقر تجولان في المكان

تتحسسان أفكار و كلمات لم يقلها أحد ، بطرف عيني لمحت روميو الجامعة ، دكتور مصطفى ينظر لها نظرات تقطر حبا و إعجابا فمضغت غيظي .

خرجنا و باقي الزملاء من الاجتماع لنجتمع مرة أخرى في حجرة الأطباء .

مينا : أنا مش هاسمح إن واقعة مارك تتكرر تاني ، دي كل مرة بتتوحش و تاكل حد فينا البلد بتغلي من الفساد بجاحتهم بقت أوفر أوي ، عصابة كبيرة مالهاش أول من آخر مش عارفين نتنفس بس بصراحة يا داليا أحييك على ثباتك و موقفك .

مصطفى : مكنتش متخيل إنك هتقدري تهدديها يا داليا كنت خايف تضعفي ، كنت خايف عليكِ .

كانت داليا تنظر لمصطفى و مينا بامتنان ، في الوقت الذي كانت تلمحني بطرف عينيها و أنا آكل بعضي من الغيرة .

- أنا مش هاستقيل مش دلوقت على الأقل ثم التفتت لتكمل كلامها ناحيتي

قالت و في رنة صوتها عتب مشوب بالقلق : لكن الدكتور عمر تأخر حتى لحق بنا و تكلم آخر الاجتماع .

تحولت أنظار مينا و مصطفى ناحيتي ، كان مصطفى ينظر بحزن نحوي و ظل ينقر على مكتب يقف قبالته و هو يمعن النظر في طرقات أصابعه ، كأنه يحاول أن ينشغل عن تلك الكهرباء التي أشعلت الأجواء حين نظرت لي داليا بينما كان مينا متحفزا كعادته .

- أنا اتكلمت في الوقت المناسب كنت باستمع علشان أعرف نقطة ضعفها .

- واضح إنك عارفها كويس وفاهمها أوي كمان يا دكتور - قالها مصطفى وعيناه لا ترتفعان عن سطح المكتب -.

- فعلا يا دكتور مصطفى و زي مانا عارف داليا كويس و كنت متأكد أنها هتقف قدامها بجرأة و ثبات محصلوش ، داليا مكانتش محتاجة حد يسندها كانت بميت رجل .

كان حبي يندلق من كلماتي لداليا و هو ما التقطه الشابان بسهولة فآثرا الصمت قال بعدها مصطفى بصوت عميق المحبة وقد رفع رأسه نحو داليا متجاهلا شبحي الذي يخايله : داليا متقلقيش إحنا معاكِ ، ثم بتنهيدة نارية : نستأذن إحنا الأن ورانا أكتر من مشوار .

أصبح حديثنا المسائي زادا لكلينا نقضي اليوم متعجلين لنختلي ببعضنا آخر اليوم نحكي ما حدث لنا خلال النهار بعد أن قدمت أنا على إجازة من المستشفى في حين استمرت داليا في عملها بشكل أثار إعجاب و استغراب الجميع و كأنّ شيئا لم يكن تتحرك و تعمل بثبات عجيب .

- كل يوم باكتشف فيك جانب جديد في شخصيتك ، انت مين ؟! أنا ساعات باحس فيك بغموض غموض حلو .

- أنا حبيبتك يا عمر ، هذا يكفي ، لا تحاول أن تبحث أكثر من هذا، ألا يكفيك أني أحبك رغم كل ما بيننا من عقبات ، أنا لغيت عقلي و أحببتك .

- طيب اتجوزيني .

- إيه ؟

- بقولك اتجوزيني .

- ما فيش حاجة هتوقف كل ده غير إننا نتجوز .

- إزاي يا عمر و بنتك و مراتك ؟

- أنا اشتريت حريتي خلاص و دفعت فواتيري بنتي مش صغيرة شايفة و فاهمة و معتقدش إن عندها مانع طالما مافيش حاجة في حياتها هتتغير الجو المشحون و الكراهية المخفية اللي بيني و بين مامتها سمم الجو حواليها مش تفتكري كانت هتبقى أسعد لو كنت طلقت أمها من زمان و فضلنا أصدقاء و لا دلوقت و هي متقطعة بيني و بين أمها .

- معرفش يا عمر بس الناس هيقولوا إني خطفتك من حضن بنتك و مراتك .

ظللت أضحك لم أستطع إمساك الضحك بالفعل فالكلام يدعو للسخرية .

بلوم قالت لي داليا : بتضحك على إيه ؟

- على حضن مراتي و بنتي .

- الناس ليها المظاهر .

- داليا أنا كسرت الأربعين - ردي عليّ - و إنت أربعة و تلاتين ، خمسة و ثلاثين ، معندناش وقت ، فات من عمرنا كتير أوي ، كفاية لو متجوزناش هنتعب وهنتعب اللي حوالينا الناس اللي متجوزناش عشان فاكرين إن ده فمصلحتهم هنفضل طول عمرنا ناقمين عليهم لأنهم السبب في عدم ارتباطنا أنا خلاص مش قادر أبعد عنك أكتر من كده

افهمي أرجوكِ ، بجد مش قادر .
- طيب اديني وقت أفكر إزاي أفاتح بابا و ماما .
- بحبك يا داليا و مش متصور حياتي اللي جاية من غيرك أنا أقدر أقنع باباك و مامتك .

هي ....
لم أستطع النوم ليلتها كان بداخلي بركان يغلي كل ما حدث في الفترة الأخيرة كان فوق احتمالي كل ما حدث بحياتي ما فعلته ثريا مكيدتها الوقحة و حبي لعمر و مشاكل بيته طلبه الزواج مني .
الزواج ؟؟؟ توقفت طويلا أمام الفكرة لطالما راودتني فأطردها و أخجل من نفسي ، أأحب رجلا متزوجا ؟ أنتزعه من بيته ؟ مهما كان هذا البيت و مهما كانت الظروف ، هو للآن زوج و أب لم يسع للطلاق قبلا إذن كان مرتضيا حياته بشكل ما ، كنت ألوم كل امرأة تسعى للزواج برجل متزوج أهاجمها بقوة أضع نفسي مكان الزوجة التي أحبت و ضحت و عاشت لتأتي أخرى باسم الحب لتنتزع منها زوجها ، كنت أقول إن الموضوع لا يتعدى نزوة رجل و امرأة و أنهما سرعان ما يستفيقان من نشوتهما ليتم الانفصال و يعود لقواعده و بيته الأول ، كنت أقول كل ما تقوله الأخريات ، لم أضع نفسي أبدا و لا مرة في مكان المرأة الأخرى تلك التي لا تمتلك قلبها و لا طاقة لها بالفقد و بالخذلان و التي حلل لها الشرع الزواج برجل متزوج تحت ضوابط منتقاة ، و حرّمه المجتمع لأسباب لا علاقة لها بتلك الأسباب الشرعية ، بل لأسباب ظالمة

و عقيمة لم أضع نفسي مكان المرأة التي أحبت دون تخطيط أو حتى أمل ، لذا فقد كنت أرفض كلما ألح علي في طلب الزواج أرفض و في قرار قلبي أتمنى أن يتمسك بي أن يجبرني على الزواج به أن يفعل كل ما بوسعه حتى أقبل ، و الآن أفكر في الموضوع بشكل آخر و دون أن أخجل من نفسي و لم لا ؟! عمر لم يكن سعيدا و الكل يعلم ، و أولهم زوجته ، إنها تعتبره مشروعا أو شيئا تمتلكه ، لو كانت تحبه حقا لما عاشت معه و هي تدرك جيدا أنه لا يحبها ، لو كانت تحبه حقا ما فعلت معنا ما فعلته و قبلت أن تحيا معه بضغط و إجبار أيا كان هذا الإجبار ، ابنة كانت ، أو أبا يشتري لابنته ما تريد ، لو كانت تحبه لتمنت له السعادة حتى لو مع غيرها إن المرأة إذا أحبت رجلا و اكتشفت أنه يحب أخرى فأمامها خياران إمّا أن ترفض و تبتعد و إما أن تقبل لشدة حبها أو لاعتبارات اجتماعية و لكن أبدا لا تحاربه تجبره على أن يعود لها صاغرا فإما أن يعيش معها بكامل رغبته و إما لا ، هذا هو الحب الحقيقي .

أما المرأة التي تعتبر زوجها ملكا خالصا فهي ما إن تكتشف أنه أحب أخرى حتى تبدأ حربا لا هوادة فيها للاحتفاظ به و لأسباب لا علاقة لها بالحب ، بل بالملكية فهي تريده ملكا خالصا لأنه يشبعها ماديا أو عاطفيا و تراه حكرا أو إرثا و لا تريد أن تشاركها فيه أخرى حتى لو كان يحب الأخرى ، هنا هي لا تحبه و لكن تحب نفسها تحب ما تملك بدليل أنه لا يهمها إن أحب أو لم يحب و لا يهمها ، المهم ألا يتزوج تلك الأخرى فلا يعطيها جسده و لا ماله ؟! أما أمر قلبه فهو مقدور عليه ، فليذهب

قلبه للجحيم أما جسده و ماله فلا و ألف لا .
لذا فهي تقبل أن تعيش معه و يعود لها رغم أن قلبه معلق بالأخرى شريطة ألا تنال الأخرى شيئا من ممتلكاتها ، أو ليس هذا المنطق تعتنقه الكثيرات ؟
لو كانت تحب لأصبح همها كله أنه أحب ، فتلك هي الطامة الكبرى و كفى بها أنه أحب غيرها و لقررت ساعتها بكل وضوح إن كان بإمكانها العيش معه أو الانفصال .
و كنت سأعرف و أتأكد من عدم حبها له و لاعتباره شيئا مملوكا لها فيما بعد .
و أنا ؟ أنا لم أعش حياتي و لم أشعر بهذه المشاعر قبلا ، لم أختر " عمر " ليتني أستطيع الاختيار لاخترت رجلا بلا زوجة ، بلا ابنة ، من منا يسيطر على مشاعره؟ ثم إن.من حقي أن أحظى بفرصة ثانية ، كل الناس من حقها فرصة ثانية و ثالثة و ربما أخيرة للسعادة ، لن يعارضني أحد ألم تكرر أمي على مسامعي أني يجب أن أبحث عن زوج لأنهم لن يدوموا لي و أن ابني سيكبر يوما ما و سأعيش وحيدة و حتى نادر لن يعترض لن يحرمني من أحمد لا يستطيع أن يضمه لحضانته فهو غير متفرغ له . كنت أراجع تلك الأفكار و كأني أرتبها في حالة سألني أحد كأني أضع الأعذار مسبقا و الإجابات التي يجب أن تكون جاهزة ساعة الجد كان قلبي قد اشتعل بالعزم على تغيير كل ما رفضته بحياتي لابد و أن أعيش كما ينبغي حياة كالحياة .

شخصية أخرى كانت تعتمل داخلي و تصارعني لوقت طويل كافحتها طويلا حتى تغلبت عليّ وخرجت للنور ، أعلم جيدا ، إنها السكتسوفرينيا التي تنتابني كما كانت هاجر تصفها أشعر بها الآن و على طرف سريري كانت تجلس أناي .

هو ...

لم أحظ بنوم جيد في تلك الليلة كان القلق والحماس يستبدان بي و ما إن غفوت قرب الفجر حتى هاجمني ذلك الحلم الكابوس فاستيقظت مفزوعا شعرت كأن حجرا ثقيلا ألقي على صدري ، فاستعذت بالله و تذكرت الحدث الأهم في حياتي غدا سأذهب لداليا بعد صلاة الجمعة و سأفاتح والديها بشأن زواجنا و ربما أعقد عليها سريعا ما المانع نحن ناضجان بما يكفي و هي مطلقة لن يحبذ أهلها الانتظار في مثل تلك الأحوال يستحب عقد القران سريعا ستكون بين يدي بكل ما فيها أسعدتني فكرة وجودها في أحضاني الفارغة لن أكون كشجرة يابسة وسط صحراء راجية مرة أخرى ، سأنعم أخيرًا بالمرأة التي أحبها لن يلومني أحد حتى راجية ، ربما ستسعد بشكل ما أن عبئا انزاح عن كاهلها ، عبئا يذكرها بخطب ما فيها بعطبها الإنساني و العاطفي لقد كتبت كل ما أملك باسمها و ابنتها من حقي الآن أن أعيش حياتي .

عشرون عاما و أنا أعمل كالثور في ساقية بلا مقابل أريد أن أحيا في هدوء مع من أحب هل هذا كثير؟ داليا هي كل ما أريده و لا بد أن تكون لي .

هي ...

استيقظت في الصباح و أنا سعيدة أنتظر زيارة عمرفي الصباح دق جرس التليفون برنين متواصل و كأنها مكالمة من المحافظات قمت مسرعة و رفعت السماعة :

- آلو

- أيوة..أيوة ده منزل الدكتور عبدالرحمن فضل أيوة ... إيه ؟! إقامة جبرية ؟ مش فاهمة... مين حضرتك ؟....مين ؟ ؟؟؟ آه أهلا و سهلا ، ممكن ثانية واحدة أخليك تكلم الدكتور بنفسك ، أكيد فيه سوء تفاهم .

كان والدي يقف خلفي حين تناول السماعة :

- أيوة ... نعم ... نعم ... مفهوم ... .توقعت ... مفهوم .

وضع والدي السماعة و انهار جالسا على أريكة خلفه .

- لكلام اللي الراجل قاله ده صحيح يا بابا ؟

- أيوة حطوني تحت الإقامة الجبرية بعد العمر ده مش فاهم ليه بيقوللي وضع مؤقت لأن البلد في ظرف حرج ، ظرف إيه ! - بانفعال - : أربعين سنة في خدمة البلد أربعين سنة خرج من تحت إيدي أجيال بيعشقوا ترابها حفظتهم بلدهم شبر شبر و عيّشْتُهم مأساتها من قبل التاريخ علشان يقدروا يدافعوا عنها .

- بابا : أرجوك متنفعلش ، حسب كلامك دي مش أول مرة و احنا مش هنسكت على كده مش هنسكت هنقوم الدنيا حد في قيمتك وقامتك

ميتعاملش كده أرجوك تهدى الانفعال مش كويس علشانك " تهدج صدره وهو يحوقل و يستغفر" ثم قام إلى غرفته .

كان الوقت بعد صلاة الجمعة حين سمعت تلك الضوضاء في شارعنا أصوات تهتف و سيارات تطلق أبواقها لم أكن أفهم شيئا لكن الصوت اقترب أكثر و أصبحت الأصوات أكثر وضوحا .

وقفت أنا و أبي في الشرفة لنرى شارعنا الهادىء تمر به تظاهرة غريبة ، شباب و بنات و سيدات يمرون أمام البيت و ينادون علينا " يا أهالينا انضموا لينا ، عيش حرية عدالة اجتماعية ".

- إيه ده ؟! أنا مش مصدق عينيّ .

- دول شباب بينادوا بتغيير وزير الداخلية و عملوا دعوات على الإنترنت علشان يغيروا الوضع اللي احنا فيه معرفش ليه حاسة إن الموضوع كبير أكبر من مجرد مظاهرة . نظر لي أبي و على وجهه ابتسامة غامضة مشوبة بأسى :

- مممم ..... دول بتوع البرادعي ؟ كنت عارف زي ما حصل هناك في تونس بالضبط ، تقديرهم خانهم كما توقعت .

- لا يا بابا دول بتوع مصربس اللي سمعته إن البرادعي كمان نازل النهارده

- استدار الأب و رجع تاركا داليا والأم في الشرفة .

قالت الأم بقلق - يليق بعقلية تركن للظلم وتراه معتادا - : يابنتي و ليه ده كله من إمتى بنغيّر بالمظاهرات و الهرجلة ؟

- الأوضاع من سيء لأسوأ و الفساد خنقنا كلنا أنا هاروح أجيب لهم زجاجات مياه .

أسرعت داليا إلى الثلاجة فتحتها و أحضرت عدة زجاجات مياه بلاستيكية و أرسلت ابنها بهم للمارين تحت شرفتها بزجاجات المياه في حين كان أبوها جالسا على كرسيه في هدوء غير مناسب لما يحدث حوله وعلى شفتيه ابتسامة غريبة كأنه يرى شيئا لا يراه أحد غيره بيد أنه قال بهدوء .

- بلاش تنزلي الولد .

- متخافش يا بابا أنا واقفة أهه بتابعه .

التقطت محمولها و حاولت الاتصال بعمر وجدت الشبكة تم فصلها و قبل أن تفكر سمعت طرقات شديدة على الباب فتحته لتجد عمر و أحمد ابنها يقفان أمام الباب .

دخل عمر و ارتمى على أقرب كرسي .

- الأسانسير معطل كنت باصلي تحت في الجامع اللي جنبكم قلت لنفسي أصلي و أطلع أخد داليا و أحمد و نخرج طول النهار لقيت المظاهرة حاولت أكلمك فوجئت بهم بيقولوا إنهم قطعوا خطوط الموبايل .

لمعت عينا داليا بالغضب عند سماع كلامه .

- إيه ؟! هي حصلت يحبسونا زي الفيران في بيوتنا ؟ للدرجة دي بيستخفوا بالناس ، إيه الجبروت ده أنا في حياتي مسمعتش عن حكومة تحبس شعب و تمنعه من الكلام في التليفون دول اتجننوا اسمع يا عمر

أنا هانزل أنضم للمظاهرة وهاروح التحرير معاهم هما كانوا من خمستاشر يوم بينادوا قدام النقابة بالمظاهرات دي و الثلاثاء اللي فات يوم ٢٥ كانت البداية ، و أنا اللي انشغلت و مروحتش ،همّا رايحين التحرير ، أنا عارفة .

- من خمستاشر يوم ؟ يعني يوم الاجتماع إياه ؟ بتاع ثريا ؟ على كده بقى كان مصطفى و مينا رايحين المظاهرة اللي قدام النقابة ؟

- أيوة فعلا هما قالولي و أنا اعتذرت لأني كنت متوترة قبلها .

- و مقولتيش ليّ ؟

- يا عمر كانوا محلفيني مقولش لحد إنت عارف المستشفى و اللي فيه راميين ودانهم و يتمنوا يودوا أي حد فداهية ، ده غير إن ثريا صديقة شخصية لوزير الصحة و شركا سوى من الباطن في ميت مشروع و ده اللي بيقوي قلبها علينا .

- ده انتوا أصحاب قوي و ثقة بقى لدرجة يقولولك على خطواتهم .

تنظر له بعتاب معناه هذا ليس وقته .

- يا بنتي مظاهرة إيه انت مش خايفة على نفسك خافي علينا إيه الجنان ده ؟؟ قالتها الأم و قد نفد صبرها و استحال الوضع في وجهة نظرها إلى جنون مطبق على الجميع ، فالتفتت للأب الجالس في ركنه و قد تركز بصره على شاشة التلفزيون و بيده " الريموت كنترول " يعبث بالقنوات.

- يا دكتور عبدالرحمن بنتك نازلة مظاهرة اعمل حاجة ما انت عارف ممكن يحصل لها إيه إنت نسيت و لا أفكرك بيعملوا إيه في البنات .

كان الأب يتابع الموقف وعيناه تجول بين شاشة التلفزيون وبين ما يحدث حوله بهدوء كأنه يشاهد فيلما معادا أو قرأ السيناريو قبلا .

- لم تكن تستمع جرت نحو حجرتها وضعت جاكيت و كوفية و غيرت حذاءها بآخر رياضي في حين قال الأب بهدوء و دون أن يلتفت لزوجته .

- مش هاقدر أمنعها محدش هيقدر يمنعهم.. ربنا يستر .

- عمر؟ هتيجي معايا ؟

- بالبدلة كده ؟! كان يرى بعينيها تصميما أحبه مؤخرا فتراجع وتمتم".ما علينا ياللا بينا "

- و أنا يا ماما

- لا يا أحمد خليك خلي بالك من جدو و تيته لحد ما أرجع .. إن شاء الله

كان جنون الموقف وغرابته قد ألجما والديها اللذين لم يعتادا على تلك الأحداث الغريبة حتى والدها لم يتوقع أن يكون الوقت قريبا لهذا الحد ولم يتوقع بعد شكلا لما سيحدث .

ثم إن حياتهما مرت هانئة بسيطة بضيقها و فرجها لم يتوقفا كثيرا أمام الأزمات كانا قد ذاقا آخر الأيام الحلوة أيام اللقمة الهانئة النظيفة و التي تأتي برغم صعوبات الحياة، شظف رغيد إن كان من الممكن أن يوصف الشظف بهذا الوصف .

كانت والدتها تقول لها إنه لا يوجد حب هذه الأيام و لا طعم للحياة ، كان الحب على أيامهم راقٍ ومميز و ملىء بالتفاصيل التي تهون كل صعب عاشوا زمن الحب الجميل فكان كقطرات ندى تبلل قلوبهم بالرضا كان الحب هو حليم و ثومة يؤرخون أحلى أوقاتهم و أصعبها بتواريخ الأغاني

يعيشون كما ينبغي للعيش أن يكون برغم الحروب كان كل شيء أنيق ونظيف الناس يلمعون كالألماس فقراؤهم و أغنياؤهم سواء الجميع كانت الحياة أبسط و فكرة الثورة "الشعبية " غريبة و غير مطروحة بعد عقود من الخلود للدعة و المسكنات .

ثقافة ضاربة في العمق قديمة قدم الفراعين العظام كان الفرعون إله صغير ينعم و يحرم يعاقب و يعفو يمنح و يمنع لا مانع فالحياة تسير هادئة كان الاستقرار أسلوب حياة هدف بحد ذاته اعتاد الناس الشقاء و استمتعوا بالاستقرار حتى لو في القاع قاع العالم .
ربما كانوا يطمحون بالتغيير و لكن دون ثورات تغيير طبيعي انتظروه كثيرا لكنه لم يأت ربما فيما بعد ستتفهم داليا موقف والديها خصوصا والدتها ربما ستعذرهم ربما ستتمنى يومها لو كان لها نفس قناعاتهم الأكيد أنها ستستشعر لونا من الندم .
هذا الجيل بغالبية رجاله ونسائه ، لم يكن هناك ما يدعوهم للتحمس و لا يفهمون معنى أن ينفد صبر الناس لا سيما الشباب و أن يجيء حديث " التوريث " كشعرة تقصم ظهر البعير فلا يقبله الشعب المنهك و لا الجيش الذي لا يقبل أن يحكم مصر زمرة من الهواة المنتفعين و أرباب رأس المال بلا خلفية عسكرية لدولة بموقع مصر الاستراتيجي الذي يحتم عليها - بحسب رأيهم - رئيسًا عسكريًا كما كانت منذ أيام أحمس .

كان الكيل قد طفح وبدأ الغضب و القلق بين صقور الجيش و نسور البيزنس .

أن تضيع حقوق الفقراء وسط تغول رأس المال و أن يسيطر على الوطن حفنة رجال أعمال لا يدينون إلا بدين المال و المكسب الفاحش كان الوطن يغلي ليست مصر و حسب ، بل الوطن الأكبر كله كان يعد لشيء مبهم ، و تمهد الأرض لشيء أكبر من خبراتهم السياسية الصفرية كآتون يُطهَى فيه شيء مريب على نار هادئة مكونات مخيفة وضع فيها الجيد مع الردىء و توالت المصائب عليه .

سارت وسط الجموع مع عمر يدها بيده وحولها شباب ورجال وبنات بعضهم يرتدي "تي شيرت" عليه صورة الثائر اللاتيني تشي جيفارا وتساءلت كيف يمكن لطفل لم يكمل السادسة عشر أن يعرف جيفارا ولكنها أدركت أنه رمز حتى ولو بدا غامضا لبعض الشباب ولكنه يظل رمزا للتمرد والوطنية في أعين شباب لا يدرون موضع قدمهم في اللحظة المقبلة .

كانت تبدو وسط المتظاهرين كلوحة رائعة لفنان مفعم بالإحساس فنان ثائر تضج ألوانه و خطوطه بالثورة شعرها المتطاير و " كوفيتها " الأنيقة و عيناها الوادعتان اللتان اتقدتا بالغضب ملامحها من الزاوية التي يراها منها كأنها جدارية على معبد مصري ضارب في القدم ينظر الناس بعضهم إلى بعض ليستمدوا الأمل و الثبات و بجانبها طيف تعرفه جيدا ، تلمح أناها تسير بجوارها تواكب خطوتها ناظرة للأمام خشيت أن تلتفت لها بكامل وجهها شعرت بالاطمئنان .

كانا قد وصلا حتى ميدان العباسية حين اقتربت فتاة سمراء من داليا و سألتها : من أين ؟

- مصر الجديدة و أنت ؟

- العباسية ، أنا لوحدي ممكن نمشي سوى أنا معاييش حد .

- اسمك إيه ؟

- مارينا ، و أنت ؟

- داليا .

أمسكتها داليا بيد و اليد الأخرى مع عمر و انطلقوا .

حين اقتربوا من شارع رمسيس كانت هناك و ريقات صغيرة يوزعها الشباب على المتظاهرين و السيارات فيها إرشادات بعدم إتلاف الأماكن العامة و الخاصة و عدم التعرض لرجال الشرطة متى حدث هذا متى كتبت تلك الوريقات المفعمة بالوطنية و حب الأرض و الخوف عليه ، مَنْ وراءها و مَنْ نظمها و متى ؟ أسئلة كانت تطن برأسها فتنفضها غير عابئة إلا بعيش تلك اللحظة التاريخية .

و فجأة حدث هرج شديد و تخبط الناس في بعضهم البعض و سمعت أصوات قنابل الغاز تنطلق شعرت بحرقان شديد في حلقها و عينيها ثم بخبطة على ظهرها ارتمت على الأرض تتلوى لم يكن عمر بجانبها صوتها لا يخرج من حنجرتها شعرت بيد تشدها إلى جانب الطريق و زجاجة مياه غازية تغسل وجهها ، كان شابا غريبا هو من يفعل ذلك يغسل وجهها و هو ما أتى بفوائده سريعا إذ استطاعت أن تفتح عينيها لتجد بجانبها مارينا ملقاة على الأرض تعاني مثلها فعاونتها و قامتا متثاقلتين

لكنها لم تجد عمر ساعدهما الشاب في النهوض ، سألها :

- معاك حد ؟

انتبهت للسؤال و صرخت : عمر ... عمر .. حين ظهر عمر فجأة من بين الناس و هرع إليها و هو يلهج ليحتضنها خبط الشاب بسرعة على كتف عمر:

- تعالوا معايا هنروح التحرير عن طريق تاني جانبي .

و انطلقوا مع الشاب و بعض المتظاهرين يجرون في شوارع رمسيس الجانبية كان أثر الغاز مازال في حلقها و لكنها تماسكت و قد زادها العنف إصرارا على إكمال ما نزلت من أجله .

حين وصلوا التحرير كان الميدان يعج بالآلاف

جلس الثلاثة يلتقطون أنفاسهم و كانت الساعة قاربت الخامسة عصرا حين قام عمر بالبحث عن أي محل تجاري ليشتري ما يؤكل للفتاتين المنهكتين لكن كانت القاهرة ساعتها خالية من المارة كمدينة للأشباح إلا ميدان التحرير عاد عمر أدراجه و جلس بجانب داليا التي نظرت له ثم أغرقت في الضحك ظل ينظر لها لثوان ثم انفجر في ضحك متواصل لتلحق بهم مارينا في وصلة غريبة و غير مفهومة لهم على الأقل في تلك اللحظة كانوا سعداء كان كل من بالميدان يشعر بتلك السعادة المبهمة لسبب خفي عليهم سعادة عصفور فتح باب القفص و انطلق يرفرف بجناحيه نحو السماء يتذوق لأول مرة معنى الحرية .

كانت هي ذاهلة من تواتر الأحداث و غموضها ،

اختلطت الحوارات و المناقشات و احتدمت الكل يدلي بدلوه و لا أحد

يعلم الحقيقة ففي الثورات تظل الحقيقة منقوصة و يحتفظ كل فرد بجزء منها ليظل الجميع مشتبكين يرفض كل فرد أن يعترف بما لدى غيره من الحقيقة لتظل الدائرة مغلقة فينكتب التاريخ بيد المنتصر ، إلا أننا و في عصر السموات المفتوحة فإن كل منا يكتب تاريخا من وجهة نظره و برغم من كل هذاالصداع السياسي و العراك إلا أن سخونة الموقف و شاعريته ألقت بظلالها على الميدان .

كانت داليا تعود من الميدان منهكة تشعر أنها ارتبطت به بحبل سري كان هو مملكتها ولم تكن وحدها التي تحمل تلك المشاعر كان الميدان يوتوبيا حلم بها الكثيرون و تحققت أخيرا على الأرض .

تهرع لحجرتها مساء كل يوم و تحتضن ابنها وهنا تتراءى لها صورة تلك الفتاة المنتقبة كانت تقف وسط الجموع و تهتف : " رقية و حفصة يموتوا بس مصر تعيش " ، رقية و حفصة ابنتا المرأة المنتقبة تسيل دموعها في صمت على رأس ابنها الهاجع في أحضانها ، لم تكن متأكدة أنها ستعيش له ، ربما تسقط كما سقط هؤلاء ، تعود لبيتها بمصر الجديدة بصعوبة في طرق أطول خوفا من المجهول و معها عمر يتأكد من وصولها لبيتها بعد أن يكون قد قام بمرافقة مارينا لبيتها بالعباسية .

كل شيء خلال ثمانية عشر يوما كان كما يقول الكتاب لكن و كما يقولون - الثورات التي يقوم بها الأبرياء يركبها الطواغيت الذين ثار عليهم ملح الأرض يتربح منها اللصوص فقط اللصوص ثم ينقلب الثوار على بعضهم البعض و تختلط مفاهيم الوطنية و العمالة حتى لتصير عجينة مطاطية يشكلها كل إنسان كما يحلو له .

لن تعرف داليا إلا بعد فوات الأوان أن الوطن الذي كنست أرصفته يوم الثاني عشر من فبراير و الذي غسلته بدموع الفرح و الصابون في ذات اليوم يتآمر عليه في الغرف المغلقة كثيرون في مصر و خارجها أكثر مما تستطيع داليا و زمرتها أن يحصوهم .

داليا لعمر وللجالسين حولهما: لم أكن أتصور أن نصل لتلك المرحلة أن يضطر الناس للقيام بدوريات متوالية لحراسة بيوتهم و شوارعهم من هجمات اللصوص.

التقط مصطفى خيط الكلام ليجيبها: نتاج الثورات يا داليا، كل اللصوص كبارهم و صغارهم ينشطون ساعة الهرج مخاض طبيعي كما يخرج مع الوليد دوما فرث و دم ، طبيعة إنسانية لا علاقة لها بالمنطق

في الميدان كان الشباب يتعجبون لهما ، يستغربون هذا التجانس الغريب فهو لم يكن يشبهها فى شىء و كأن الله عمد إليهما فجعلهما نقيضين قال لهما كونا فكانا الضد للضد ، حتى شكلًا فكرًا ، مزاجًا، اكتشفا بعضهما البعض لأول مرة في الميدان برغم الحب الذي نشأ في أحضان المستشفى إلا أن الميدان كان محضنهما الحقيقي و استغربا نفسيهما ، لم يدركا مثل هذا الاختلاف قبلا.. اختلاف الفكر و الرؤى و ربما لهذا انجذبا لبعضهما أكثر و لم يتنافرا .

و ربما لهذا السبب اشتعلت الشرارة فالشرارة لا تشتعل إلا بين الضدين السالب و الموجب أما المتشابهان فلا ينتجان شيئا تلك الكيمياء المشتركة التى تجعلهما يقبلان الاختلاف بل و يعشقان

تفاصيله يتشاجران ، يتصالحان ، يتجادلان فتظل تلك الحرارة نابضة و تلك السخونة فى التفاصيل حية .

كانت داليا و عمر يراوحان بين الميدان و بيتهما ، انقطعا عن العمل كانت نوباتهما بين كنيسة قصر الدوبارة و جامع عمر مكرم لمداواة الجرحى من الشباب و إسعافهم أهم من المستشفى و أهم من كل شيء في حين اطمئن عمر على زوجته و ابنته اللتين سافرتا قبيل الثورة بيومين إلى شرم الشيخ لقضاء إجازة نصف العام و قامت الثورة فلم يعودا للقاهرة لأسباب عديدة .

- إزيك يا عمر .

- الحمدلله يا راجية ، طمنيني الوضع في شرم الشيخ أحسن من القاهرة ؟ نادين بخير؟

- متقلقش شرم بخير و إحنا بخير ياريتك تيجي معانا و تسيبك من " الصيع و العُمَلا " اللي انت انضميت لهم .

- ماشي ... براحتك ... بكرة تندموا .

- المهم الفيللا متأمنة كويس ؟

- ما قلت لك الوضع هنا مختلف و لعلمك أنت طبعا مسألتش فيللا مصرالجديدة حصللها إيه عموما شركة الأمن بعتت حراس متسلحين .. ده لو تحب تعرف .

- ساخرا : الحمدلله ، عموما أهي حاجتك و أملاكك و لازم تأمنهم .

" مارينا .. عازفة المعبد "

مخلوق هادىء متسامح كانت تزين بوجودها الميدان تقف أمام الصف ساعة الصلاة لحماية المصلين منحوتة مصرية منمقة لونها، سمارها ، شعرها الأجعد الحالك السواد كأنها خرجت من المعبد مع زميلاتها المغنيات كان لها صوت رخيم تستخدمه في الترانيم الكنسية و لكنها في الميدان كانت تدفىء ليالي السمار بأغنيات معشوقها الأول محمد منير و على طبقات صوتها المريحة للأذن كان عمر و داليا يهيمان وسط الجالسين حول مارينا كانت خلوتهما وسط الميدان تعج بالشباب خلوة من نوع خاص كل له حكاية ، و كثيرون لهم ثأر ، و غالبية الموجودين نزلوا حبا في تلك العصيّة المتمردة مصر جميعهم يحبونها إلا قليلا .. لو يعلمون !

داليا : قولي لي من أين أنت ؟ أصولك من القاهرة ؟

مارينا - لا من أسيوط لكني أعيش بالقاهرة مع أسرتي .

- لك إخوة ؟

- كان ... كان لي أخ و ابن عم يعيشان معنا بنفس المنزل ، والدي بنى لهما شقتين في نفس البيت بشبرا ، كان يعتبر ابن عمي هو ابنه الثاني بعد وفاة عمي .

- أنا وحيدة يا مارينا ، ليس لي إخوة ، كم تمنيت أن تكون لي أخت أو أخ ، أشعر أنك أختي ، صدقيني .

تبتسم الفتاة بهدوء ،رصينة بما لا يليق مع سنها الصغيرة ،عشرينية هي.

- أكملي .. أين أخوك و ابن عمك ؟

- ماتا ... الكلمة كانت كالصدمة ألجمت داليا ، تلفتت حولها كمن تستغيث بشيء أو شخص ينقذها من ثقل الكلمة التي ألقتها مارينا بهدوء غريب و بملامح لا توحي بشيء ، ثم نطقت بصعوبة و قد تدلى فكها : الله يرحمهم .

- ماتا في قطار أسيوط ، احترقا ، لم نتعرف عليهما الحمض النووي تكفل بذلك و بقايا أوراق تحولا لعصي سوداء و جماجم لا تشبههما كانوا يضعون عظامهما و بقاياهما سويا حين و جدوهما ملتصقين ، كانا صديقين أحدهما كان يحيط بالآخر ، وجدوا صعوبة في فصلهما ، كان أحدهما يحاول أن يحمي الآخر .

- الفتاة انفتحت في السرد و كأنها تذكِّر نفسها أو تتمنى أن تحكي كأنها كانت تتحين الفرصة لتلقي عبء حكايتها عن قلبها المثقل بالألم .

- أنا و والدي تعرفنا عليهما ، والدتي من ساعتها لا تتكلم إلا قليلا كان أخي طالبا بكلية الطب و ابن عمي كان صيدلانيا طوال عمرهما كانا من المتفوقين ، كان ابن عمي و خطيبي ، حب العمر كما يقولون ، و أخي الوحيد .

- " كانت تحكي و عيناها تنظران للفراغ ".

حين خرجتُ يوم الجمعة لم أكن أعرف إلى أين ، توسلت إليّ أمي و تشبث بي أبي أنا آخر ما تبقى لهما و لكن من قال إني آخر ما تبقى ليس هناك ما تبقى لهما أصلا ، لم أعد موجودة منذ رأيتهما حطاما محترقا ، عماد أخي و مينا ابن عمي و خطيبي ، تسألني أمي دوما تُرَى

كيف مضت بهما تلك الدقائق الأخيرة و ماذا فعلا ساعتها .
أحيانا تستيقظ على صوت صراخهما و هي تصرخ مثلهما و لكن ربما أنا فقط أعلم ما كانا يفكران فيه حين كانا يصرخان و النيران تلتهمهما أحياء و كل منهما يحاول أن يقي الآخر شرّها ، كانا يفكران في كل ما مرّ بهما ،و ربما وجداها فرصة طيبة للتخلص من هذا العفن الذي كان يحيط بنا فأنت لا تعرفين معنى أن تكون منفيا داخل وطنك مهددا بالفناء لضيق ذات اليد .
عماد و مينا كانا يعملان منذ كانا طفلين صغيرين ، هل تعلمين شيئا عن صعوبة الحياة في الأقاليم ؟! ، انعدام فرص العمل قتلت في الشباب كل أمل في النجاة داخل قراهم البعيدة و المحرومة من كل مظاهر الحياة اللينة ، فهو إما يلجأ للسفر عبر البحر في رحلة غير مأمونة العواقب و إما يسافر للقاهرة حيث فرص أوسع للعيش.
عماد و مينا كانا يسافران دوما للقاهرة في صباهما المبكرعملا في كل شيء حتى وصلا للثانوي ساعتها قرر والدي أن ينتقل بنا للقاهرة ليستطيع الصبيان التفرغ أكثر لمذاكرتهما ، و إشفاقا عليهما من شر الطريق ، فقد أظهرا نبوغا كبيرا رغم ضيق العيش ، ربما أورثهما العمل المبكر صلابة و إصرارا على النجاح ، ربما لا يتألق الإنسان إلا حين تنطفىء كل آماله فيلجأ إلى التوهج الذاتي إمعانا في مغالبة الظروف .
هكذا نبوغ الفقراء ليس إلا نوعا من التمرد على حياة لم تلق لهم إلا الفتات ، فما كان منهم إلا أن نالوا منها عن طريق التفوق العلمي كانا من الأوائل في الثانوية العامة ، جمع بينهما الشقاء و رابطة الدم و اللقمة

الكسيرة و السفر من أجل العيش ، حتى التفوق و النبوغ اشتركا فيه و لنفس الأسباب ربما حاربا الظروف من أجل أن يشتري كل منهما لأخواته البنات ما يسترهن ففي حين كنت أنا ابنة وحيدة لأب مريض بفيروس سي ، كان لمينا ثلاث أخوات بنات يتولى هو إعالتهن بعد وفاة عمي ، أحد معارفنا من شعب الكنيسة أهدانا شقة صغيرة من حجرتين بجانب الكاتدرائية بالعباسية كجائزة بعد نجاحهما بتفوق ، كانت منحة إلهية بامتياز لم يصدق والدي أذنيه عندما علم بنبأ نجاحهما برغم ما نلاقيه من شقاء ، كان نجاحهما طبطبة يد الرب على ظهورنا و ابتسمت لنا الدنيا قليلا حين تخرجا بتفوق كعادتهما و اتفق مينا مع أبي على عقد إكليل زواجنا بكنيستنا بأسيوط ، و ذهب مع أخي لتخليص الإجراءات ، رفضا السفر في سيارة أجرة و قررا أن يستعيدا ذكرى أيام الشقاء و أن يسافرا بنفس القطار الذي كان يقلّهما صبيَّيْن إلى القاهرة بحثا عن اللقمة ذهبا و لم يعودا ، يا لسخرية الحياة ! ، نفس القطار الذي شهد صباهما و ملابسهما المهترئة و سعيهما الشريف هو الذي شهد نهايتهما المفجعة بعد أن كان القدر سخيا فجاد عليهما بقميصين نظيفين و شهادتين مرموقتين ، ثم .. ثم أصبحا وقودا لتلك الثورة .

- كانت تكرر اسميهما بلا ملل ، في الغالب لم تكن تحدث داليا ، كانت تحدث نفسها ..

- كانت داليا تسرح مع الوجوه ، تنقشهم في ذاكرتها لتحفظهم ، تراهم كشخوص مصرية صميمة نزلت من على جدران المعابد و المتاحف ، يزحفون زحفا نحو الميدان ليعيدوا لمصر ما ضاع منها ، هكذا تصورو

- حياة الميدان فرضت عليهم سلسلة متواصلة من التفكير و القلق ، تواجدهم وسط الشباب جعلهم يفكرون بالمستقبل ، ماذا بعد ؟، التنازلات لم تعد في حساباتهم ، سقف المطالب كان يرتفع يوما بعد يوم حتى صارت كلمة " إرحل " تهز الفضائيات و تشق سماء الدنيا ، ترجمت لكل اللغات و سيطر على معانيها خفة الظل التي يمتاز بها المصريون عن غيرهم من الشعوب .

داليا : خلاص .. قررت خلاص

عمر: قررتِ إيه ؟

- أستقيل من المستشفى ، أنا مش فاضية للصراع اللي عاوزة ثريا تجرني ليه .

- هتروحي مكان تاني ؟

- أيوة ، عاوزة أبدأ من جديد في مكان أقدر أنفذ فيه اللي باحلم بيه ، عمر ما كان حلمي عمليات تجميل الفك و اللثة فقط ، أريد العمل في مركز طبي صغير أبدأ فيه ، أريد حيا شعبيا يحتاج لخدماتي ، نستطيع أن نفتح عيادة بحي شعبي سويا . ستمولها أنت و أنا بمجهودي ، لاتتعجل الدخل فحتى لو اشتهرت لن نرفع الأسعار ، قد أحتفظ بعملي أيضا في أي مستشفى و لكنه لن يكون حلمي ، سأعود لحلمي القديم

كان ينظر لها بحب حين قال :

- و إيه تاني ؟

- .... ؟؟؟

- أقصد عندك خطط تانية ؟

هـزت كتفيهـا ببسـاطة طفلـة و اسـتكانت بجانبـه على رصـيف المشـفى الميداني .

- في اليوم التالي كانت بالمشفى ، تعبت كثيرا حتى وصلت ، رفضت رفضا تاما أن يرافقها عمر، قررت أن تواجه ثريا هذه المرة وحيدة عزلاء بلا رفقة .

- دخلت المشـفى مرفوعـة الـرأس فتعلقـت بهـا عيـون الجميـع ، مظهرهـا البسـيط و شـعرها المنسـدل و الكوفيـة التي لـم تعـد تخلعها منـذ وصلت الميـدان ، الكوفيـة الفلسـطينية التي ترمـز للنضـال في أعمـاق الشـباب أصـبحت بطاقـة هويـة ، تمشي كأنهـا أسـطورة و ، زملاؤهـا ينظـرون لهـا كأنها السـبب فيما يحدث للبلد و كأن الثورة قامت من أجلها ، ترامت للجميع أخبار انضمام عمر و داليا و مصطفى و مينا للميدان .

حـين وصـلت لمكتـب ثريـا و التي عرفـت بالتأكيـد بوجودهـا منـذ لحظـة دخولها من الباب ، كان معها مجاهد يجلس معها بعينين زائغتين و مزاج متوتر يعبق جو الحجرة بلزوجته .

- أهلا بالمناضلة العظيمة ، " كانت تنظر لها بغل شـديد و كان مجاهـد مدهوشا لمرأى داليا و عيناه تزحفان على جسدها "

- أهلا يا دكتورة .

- إيـه اللي خلاكي تسـيبي الميـدان بتـاعكم ، خير طالبـة سـلفة علشـان تكملوا مخططكم الفوضوي ؟

- مخططنـا ؟ و سـلفة ؟ " ثـم بابتسـامة سـاخرة " : لا يـا فنـدم أنـا جايـة أقدم استقالتي .

- آهـاا ، يظهـر التمـويلات نازلـة تـرف عليـكِ ، و يبـدو أن الـدكتور عمـر مبسـوط أوي في الميدان و اللي بيحصل في خيام الميدان .

" كانـت تحـاول اسـتفزازها و تتبـادل مـع مجاهـد البسـمات السـاخرة ، إلا أن داليـا انتبهـت للمحاولـة فكانـت أكثـر هـدوءا و بـرودا و هـي تتلقـى الاتهامات التي صارت مضغة في فم كل من لم ينزل للميدان و كل من تـربح مـن النظـام ، ثـم أخرجـت مـن جيـب سـترتها ورقـة و وضـعتها على مكتـب ثريـا بهـدوء زاد مـن غيظهمـا ؛ فقـال مجاهـد و هـو ينـزّ غيظـا و بانفعال غريب على برودة و ثقل ظله : ابقي سلمي لنا على الصِيَّع اللي قاعدين معاكم في الخيام ، ألقمته نظرة تطاير منها الشرر أخرسته حتى أنه حاول أن يتراجع و يبتلع كلماته فلم يستطع .

- أنت بالذات تعرف جيدا و هذه الحجرة تشهد و تقول مَنْ هم الصيّع عديمو الشرف أصحاب الصفقات والعروض المشبوهة .

رمت بعـود ثقابهـا وراءهـا لتشـعل الحريـق في جسـديهما و خرجـت غير عابئـة ، لـم تكـن تتخيـل أنهـا سـتتفوه في يـوم مـا ، بمثـل تلـك الكلمـات ، و لكن على رأي شـاعرها المفضـل مظفـر النـواب " سـيقولون عني بذيء ، أروني موقفا أكثر بذاءة مما نحن فيه "!

من بعيد لوح لهما شخصان من بين الجموع ، اقتربا ليجدا أمامهما مينا و مصطفى ، صرخت داليا بطفولة محببة :

- مش معقول مش معقول ، و الله كان قلبي حاسس !

اتسـعت ابتسـامة مصـطفى ليضـمها بعينيـه و بجانبهـا وقـف عمـر و على شـفتيه ابتسـامة صفراء يطل خلفها شبح الغيرة .

عمر : إيه ده انتو ورانا ورانا !!

مصطفى : إحنا هنا من يوم ٢٥ يا دكتور عمر .

مينا : فعلا ، ما انت عارفة يا داليا .

- إزاي راح عن بالي أكلمكم أعرف انتو فين ، في المستشفى جري ورايا دكتور أدهم وصفي و همس لي إنكم في الميدان ، كان خايف ، المهم نسيت أسأله بتقعدوا فين بالظبط .

مصطفى - بغيظ هو ينظر لعمر بطرف عينيه - : اللي واخد عقلك - .الله يسامحه بقى - ، لكزه مينا بذراعه و ابتسم ليلطف من الجو الذي شحنته مشاعر لا يحس نيرانها إلا مصطفى و عمر .

كانت حلقات النقاش لا تنتهي و كلها تدور حول المستقبل ، يتزعمها مصطفى و عمر ، يختلفان و يتفقان ، بينهما تارة غيرة و تارة حماس و تفاهم ، و كان السؤال الذي لا يفتأ يدور بينهم ، ما هي احتمالات تنفيذ مطلبهم الوحيد ، و ماذا بعد أن يتم تحقيقه ، وكان رأي مصطفى أنهم أصبحوا كموجة بلا شاطىء ، شباب متحمس بدون قائد ، لا يقودهم إلا مشاعر طازجة عديمة الخبرة ، و كان الوطن أرض مجرفة بلا قاعدة سياسية و لا أحزاب ذات ثقل ، كلها كانت صنيعة الحاكم تقوم بدورها المرسوم كمومياوات محنطة عفا عليها الزمان .

انتقلت وساوس مصطفى لجميع من في الخيمة بعد أن ألقى بكلماته ووقع الجميع في نفس البئر وهم يتساءلون وماذا بعد..!

كانا يسيران متلاصقين و يداهما متشابكتان عبر ميدان طلعت حرب حيث اعتاد عمر أن يترك سيارته أمام العمارة التي تقع بها عيادته أمام

محل للمستلزمات الطبية يعرفه صاحبه و يعرف والده .

- داليا ... إنت مرديتيش على سؤالي .
- سؤال إيه .
- إنت فاهمة أقصد إيه ، أنا ... أنا فين من خططك ؟ - ثم ضاحكا - ناوية تعملي إيه بيّ بعد كده .
- تتنهد : أنا خايفة يا عمر ، مش عارفة إيه هيحصل ، اللي حصل لي في الأيام اللي فاتت أربك تفكيري ، مبفكرش غير في البلد ، مبفكرش في نفسي .
- طيب فكري في أنا على الأقل .
- بقوللك مبفكرش في نفسي ، و انت نفسي يا عمر .
- يبقى نتجوز ، هنستنى إيه ، نفسي أصحى من النوم ألاقيك جنبي ، نفسي نكبر و نعجز سوى ، عاوز منك ولد أو بنت ، أمل جديد ، إحنا طريقنا واحد يا داليا .
- تفتكر ؟
- إنت لسه بتشُكّي ؟
- خايفة يا عمر ، خايفة ، مش عارفة فيه حاجة مخوفاني مش قادرة أحدد إيه هي ، أنا داخلة على مجهول ، كلنا .. البلد كلها مش أنا بس .

كان الوقت مشحونا بتوتر غير مفهوم في هذا اليوم ، مينا و مصطفى يجلسان و وجههما لمقر جامعة الدول العربية ...
مصطفى : دول خليجية كثيرة ضد الثورة و تقف في صف مبارك ،

يعتبرون أن أي خلخلة لعرش مصر هي خلخلة لعروشهم ، لطالما كانت مصر حجر الزاوية لهم ، مهما ناصبوها العداء في فترة من الفترات بسبب سياسات رئيس يحكمها ، كما أحبتها الشعوب العربية أكثر حين كان يحكمنا ناصر .

مينا : ناصر كان حلما ، رمزا للحرية ، أيقونة مثل تشي جيفارا حتى أن جيفارا نفسه قابله في زيارة تاريخية ، ناصر له ماله و عليه ما عليه و كذلك السادات ، أما مبارك فإنه تأرجح بين الرفض و القبول إلا أنه و في النهاية لن يقبل معظم الحكام أن يهتزّ عرش مصر .

مصطفى : حتى و إن كانت بعض الحكومات العربية ضد عزله ، فإن للشعوب رأيا آخر ، تلك الثورة أصبحت أملا للكثيرين في دول تعاني نفس معاناتنا من أبدية الحاكم .

مينا : معك حق ، العالم كله ينتظر ما ستؤول إليه ثورتنا و لا سيما العالم الحر .

مصطفى : العالم الحر ؟؟ هههه ، هل تعتقد أن هذا الحر الذي تحكي عنه سعيد بنا لأنه يتمنى لنا الخير؟! لطالما ساعد هذا الحر الطواغيت لكي يحكمونا و لطالما ساعد التيارات الدينية لكي يقتل فينا الاستقرار ، ثم حين أصبحوا ورقة محروقة تخلصوا منها بكل بساطة أو حين يظهر الحاكم تمردا على ما يأمرونه به ، يبدأ العالم الحر في تشويهه و خلعه من عرشه ، و لنا في العراق أسوة .

مينا: لن أنسى أبدا ما فعلوه بصدام حسين ذبحوه كما تذبح أضاحيكم..كانت رسالة صارخة القحة والجبروت .

مصطفى : لن أنسى أبدا نظرته لهم قبل إعدامه و هو يسأل مَنْ حوله من لصوص و متواطئين : " هاي هي المرجلة ؟ " ، نحروه و لم نستطع أن نفعل له شيئا و هم يغزون العراق و ينهبون ثرواته ثم يتركونه للصوص بتواطئ مريب ، لا تنسى أبدا أن العراق كان دوما بوابة يدخل منها اللصوص و قطاع الطرق منذ الهكسوس و مرورا بالتتار و الحملات الصليبية و وصولا للغزو الأمريكي ، فإن سقط العراق سقطت باقي الدول العربية تباعا و هذا ما أخشاه يا مينا ، أن يكون ما نحن فيه ليس إلا حلقة من مسلسل هم بدأوه بالعراق و أن نكون بغير وعي ننفذ لهم ما يريدونه ، لا أدري ، الآن أشك في أشياء كثيرة تحدث حولنا ، ربما لم يستطيعوا أن يفعلوا بنا ما فعلوه بالعراق لأنه لا يوجد لدينا في الجيش تعدد طوائف ، جيشنا ولاؤه الأول و الأخير لمصر و ليس لتيار و لا طائفة ، لذا فقد لجأوا لحيلة أخرى هي الفتن الطائفية ، أو ربما كانت ثورتنا هذه كما يقولون ثغرة يدخلون منها ، و برغم كل
هذا لا بد و أن نكمل المشوار الذي بدأناه فلا مجال اليوم للتراجع .
مينا : أنت تخيفني بأفكارك و مخاوفك التي لا تنتهي ، أنا نفسي لا أفهم ماذا تريد ، على كل حال هم في صفنا تلك المرة .
مصطفى : ما أقوله لا ينفي براءة معظم من في الميدان و حلمهم المشروع بالعيش و الحرية و العدالة و الكرامة ، و لكن أرجوك لا تغتر بتصفيق العالم الحر لنا ، فلا بد أن لهم مصلحة مما يحدث و إلا لكانوا هنا بطائراتهم و بارجاتهم لحماية مبارك ، إن لهم مآرب أخرى دوما لا نعرفها ، أو نعرفها و ندفن رؤوسنا في الرمال لأننا لا نملك

مقاومتها ، و هذا المبنى الذي نجلس أمامه لا حول له و لا قوة كخيال المآتة ، بالضبط مثل الأمم المتحدة تأتمر بأمر شرطي العالم الحر كما تدعوه أنت .

في هذا المساء التصقا ببعضهما ، كان عمر يسندها و هي تشعر بدوار خفيف يلفهما صمت و أصوات الميدان تتنامى إلى سمعهما من بعيد تشعرهما بالأنس و الألفة .

- ماذا لو تزوجتك الآن ! .. الآن .." ! كانت تنظر له باستسلام يخالطه الحب و الإحساس بالراحة ، تطلعت له صامتة "

- .....

- تزوجيني ، أخشى أن أموت مثل هؤلاء الشهداء الذين يتساقطون هنا وهناك ، قبل أن أخذك بحضني و لو لمرة واحدة تزوجيني و إلا خطفتك ، الآن نذهب لمأذون قريب و نتزوج .

- كيف يا عمر دون أن أخبر والديّ ؟

- نخبرهما لاحقا ، نتزوج و نذهب إليهما .

- هذا جنون .

- و ما الذي نعايشه الآن إن لم يكن كل ما حولنا جنون ، صدقيني هذه فرصتنا لفرض حبنا كما فرضنا رأينا في الميدان ، أنت ستصبحين أول عروس للميدان ، تخيلي معي ، " ضحكت ملء عينيها " : عدت مراهقا ..

- بل عدت إنسانا ، من حقي أن أحبك و أتزوجك ، آن الأوان لننال حقوقنا ، لنحقق أحلامنا جملة ، و ليس قطاعي بطلوع الروح ، أوليس كذلك ؟ أنت تحبينني و أنا أيضا و ليس ثمة ما يمنع زواجنا .

- البلد أولا يا عمر ، و هل هناك من يفكر بنفسه و البلد على الحافة ؟
- بالعكس ، إن ما نفعله منتهى العقلانية و الحب و الوطنية ، سنتزوج و نحن في غمرة حبنا و عشقنا للبلد ، هذا وقتنا نحن ، أرى فيكِ البلد كما لم أرك قبلا .
أشار بيده لناصية قريبة :
- انظري هناك ، أعرف وسط البلد كمعرفتي بنفسي ، هناك مأذون المنطقة عند تلك الناصية ، أعرف مكانه ، سنذهب الآن .
- عمر ... إنها التاسعة ، لنؤجلها للغد فالليلة ليست ورديتي للبيات في المستشفى الميداني و سأبيت في المنزل ، أفاتح ماما و بابا و نتزوج غدا .
- الآن نتزوج ثم أوصلك للبيت و نخبرهما معا ، لن أنتظر للحظة واحدة ، أتفهمين ؟
- بدون أن أخبر بابا ؟
- جربي مرة في حياتك جنون الحب ، دعينا ننتهز الفرصة ، العالم كله يبارك جنوننا لم يفعلها قبلا ، لو كبرت دون أن تجربي لذة جنون الحب ستندمين صدقيني أطلقي لنفسك العنان مرة أنا نفسي عدت أصغر بعشرين عاما أنا أعيش شبابي الذي لم أعشه معك يا داليا ، أرجوك لاترفضي .
- التفتت خلفها فوجدتها تضع يدها على فمها كأنها على استعداد لإطلاق زغرودة ثم اختفت خلف مدخل مظلم لأحد البيوت .
التفتت لعمر و هزت رأسها موافقة كان قلبها يدق بشدة سعادة و انفعالا و مشاعر أخرى لا تعرفها ، لم تختبرها قبلا نسيت مخاوفها

عن الزواج الحب و الثورة وهباها ثقة لا نهائية في نفسها .

" طرقا الباب ، و تناهى لهما صوت أجش "

- من ؟

- افتح يا حاج يسري .. زائران .. عروسان ... ثم نظر لداليا بحب .

وقع أقدام تقترب من الباب ربما لتتطلع عبر " العين السحرية " ، لحظات و انفتح الباب .

- تريدان الزواج ؟ الآن ؟!

- نعم يا حاج ، معنا بطاقاتنا .

- الرجل بتردد ، هل تسمحان لي برؤيتها أولا ؟

أخرجا بطاقتيهما و وضعاها أمام العين السحرية إلا أن شراعة للباب انفتحت و تناول رجل بطاقتيهما ، تطلع الرجل بإمعان فيها ثم فتح الباب على مصراعيه و نظر لهما بتعجب وتدقيق ؟

- طبيبان ؟! و ما الذي أتى بكما لي في هذه الأيام ؟ هل أنتما من " بتوع الميدان "؟

ابتسما .

قال عمر ضاحكا : إحنا بتوع الميدان ، رد الرجل وهو يهز رأسه .

- لا عجب مجانين ، هل معكما شهود ؟ و قبل أن يجيبا أكمل : بالطبع لا لكني يا ما ورد عليّ ، أنا جاهز تفضلا ، ثم أفسح لهما الطريق إلى حجرة بجوار الباب ، ثم نادى و هو يصفق بيديه : يا محمد ، يا أحمد ، لحظات و دخل شابان يدعكان جفونهما ، تناقلا النظر بيننا .

- هاتوا بطاقاتيكما ، لدينا عروسان الليلة ، ثم نظر لنا ضاحكا .
- رزقني الله بأحمد و محمد ليكونا شهودا على الكثيرين ، ولدي محمود أيضا و لكنه " ممسوس " مثلكما يعيش بالميدان ، الله يحميكم و يبلغكم المراد ، - ثم استدرك بسرعة - إن كان خيرا .
لم يكن زواجهما مفاجأة لوالديها ، كانا يشعران أن ثمة قصة بينهما منذ زيارته الأخيرة لهم بالبيت ، كما أن ما يحدث في البلد و تسمرهما أمام شاشة الفضائيات يتابعان ما يحدث بعقول مشدوهة ، ثورة لم يقوموا بها تحدث أمامهما " لايف " جعلت عقلهما يتسع لكل ما هو غريب ، عاصرا الحرب ، لكن تلك الثورة تفوق في أحداثها الخطيرة وقت الحرب حين كانت الحرب جيشا لجيش في ميدان واحد معروف مكانه .
كل هذا أهَّلهما لتقبل كل شيء و تصديقه ، رعبهما أن يحدث لها مكروه كما يشاهدان و كما حدث للكثيرين من الشباب كان يحرق أعصابهما ، هي الآن في عصمة رجل يشاركها العمل في هذا الميدان ، يحميها ، إنها لحظات غريبة لم يعيشا مثلها . فكر أبوها حينما صارحتهما ، فكر سريعا : ابنة شابة مطلقة ، ليس لها بالطبع إلا الزواج لا سيما في هذه الأيام ، لن يهتم الناس بمن و متى تزوجت ، لم يعد أحد يلتفت لذلك في خضم الأحداث الجسام التي يعيشها الوطن ، تبيت في الشارع دون رضاه و بتصميم عجيب ، تشارك في حدث تاريخي ، ابنته تصنع التاريخ الذي لطالما أحبه و درّسه للشباب ، فليكن مع زوجها .
في شرفة منزلها كان الأربعة يجلسون أمام صينية بها أكواب الشاي ، جو فبراير أصبح مائلا للدفء و الشمس حانية ، و أحمد يجلس بجانب

عمر و بيده جهاز محمول يلعب عليه .

- يابنتي إنتو مش فاهمين ، لازم من دلوقت تعرفوا هتعملوا ايه لو اتنحى عن السلطة ، مينفعش الدنيا تفضل ماشية كده .

- هو عاوز يتنحى أصلا ! راسه ناشف يا بابا ، و بعدين اللي جاي سهل بالشباب . " ابتسم الأب و هز رأسه رافضا و غير مصدق ."

- يابنتي أنا أستاذ تاريخ ، الثورة هتاكلكم و هتتشرذموا ، لازم قيادة سياسية ، مصير تشي جيفارا و كل الثوار اللي قبلكم ، من أيام الأنبيا اللي كانوا أول الثوار نهاياتهم كانت على يد أعداء الفكرة ، صحيح الفكرة عاشت ، بس هم لم يجنوا ثمارها ، كان لهم الشوك .

- يا بابا انت عارف ، فين القيادة اللي بتفكر زينا ؟ فين الأحزاب اللي نزلت معانا وساعدتنا ؟ ما فيش غير حركة كفاية و بتوع البرادعي ، مفيش قيادات بالمعنى اللي انت متخيله .

- إذن الوضع هيبقى خطير جدا ، موجة عارمة ، تسونامي بلا هدف و سفينة بلا دفة ، و لا تعرف لها مرفأ ، و اللي هيكسب مش الشباب الثاير لا ، مفيش ثورة بتقوم من غير ما يخترقها منتفعين ، اللي هيكسب النظام ، أي نظام أو أي تنظيم ، لأنهم منظمين و عندهم كوادر و قواعد مغيبة أو نشوانة بالفكرة ، و سواء نظام أو تنظيم هو اللي هيكسب فللأسف المستقبل مش ليكم ، أيام الشدة المستنصرية لو تفتكري ، يا ما حكيت لك عنها ، الاقتصاد كان متردي أكثر و الناس بتاكل القطط و الكلاب من الشوارع ، ليه ؟ لأن الخليفة المستنصر قعد كتير في الحكم ، ترهل ، ارتاح ، أي ديمومة في الحكم بتؤدي لفساد ،

و لما بتيجي الهوجة محدش بيضيع غير أصحاب المبادئ .

- مين قال إننا بنفكر في سلطة .

- أنتم مبتفكروش أصلا ، لكن مين قالك إن كل اللي حواليكم في الميدان مبيفكروش ، ما فيش ورا البعض منكم ألف إيد و ألف جيب هيصرفوا عليهم علشان يوصلوا ؟ بالطبع فيه ، صدقيني متخلوش نشوة النصر تسرقكم .

- عيدوا قراءاتكم و خلوا بالكم من قراءتي للأمور مش متفائل ربنا يستر ، الحالمون سيتم تهميشهم ، صدقيني ، المنطقة يعاد ترتيبها ، أخشى أن تكتمل الدائرة ، دائرة فرج فودة ، أحسبها ستكتمل و لن تكتمل إلا بالدماء و الدماء المضادة ، فالتنظيمات مستعدة تماما لما بعد الهوجة ، فهل استعددتم مثلهم ؟

- عمر : أي دائرة ؟ تنظيمات إيه يا عمي ؟ حضرتك طول عمرك و كما حكت لي داليا راجل وطني عروبي ، هل ستردد كلامهم أن هناك عملاء .

- هناك عملاء في كل ثورة حركوها أو ركبوها و اندمجوا فيها لما لمسوا اقتراب نجاحها ، فإذا ما انتهت بنجاحها ، فهم كانوا ثوارها و سيسرقونها منكم و سيدعون شرفا لم ينالوه ، و إذا فشلت فلا بأس فقد أعلنوا مسبقا أنهم لم يشاركوا فيها ، أقصد بهؤلاء التنظيمات المنظمة ، اللي كان ليها مصالح قبل الثورة و بتهادن النظام و ليها مؤيدين في الخارج ، دول و أنظمة معادية أو صديقة ، هم يعدون للسلطة و ليس للكفاح ، انتبها لما أقول و غدا ستفهمان .

- أَفْهِمْني الآن يا بابا لا صبر لي .

- لا يمكن أن تفهميني لو قلت لك دعيه يكمل ستة أشهر كما طلب حتى تتفقوا على خطة منظمة لإعادة ترتيب البلاد ، هل تقبلين.؟ لا بد و أن تدور الأيام دورتها ، لو فهمت ستتعذبين .

في اليوم التالي بعد أن انتهت ورديتهما كانا يتمشيان بالميدان يسلمان على ذا و يمازحان ذاك ، همست له :

- عمر ، لقد نسينا شيئا مهما .

- لم أنس ، عيادتي بالقرب من الميدان تكاد تطل عليه .

- لم أقصد هذا ، أنت مجنون ؟!

- لست مجنونا أنت ارتبطت بالميدان كثيرا و أنا كمان و لن نغادر حتى نصل لمبتغانا ، و أنا مثلك ، و بالطبع لن نبيت في منزل والديك ، و في نفس الوقت نبيت في الميدان في ورديات مرتبة ، فلماذا لا نبيت في العيادة بجانب الميدان ، و الشباب معهم أرقام موبايلاتنا فلن يحتاروا لو جدّ شيء ، فلا يفصلنا عنهم سوى شارعين .

- كيف تفكر هكذا ؟

- ما الفارق بين الخيمة و عيادتي ، أيهما أكثر أمانا و خصوصية ؟

- نحن لا نبيت في الميدان طلبا للخصوصية يا عمر ، إنها وردية يعني يجب أن نظل يقظين لأي احتمالات يا طبيب .

- أنت تذهبين للمنزل يوما بعد يوم ، ها قد أصبح لك منزلا بالقرب من الميدان .

- و أترك الشباب ؟

- لا طبعا يا زوجتي العزيزة ، إنها سويعات قليلة للراحة ، لنستطيع المواصلة ، تنظر له بنظرة ذات مغزى كأنها تقول له : أفهمك "

- صدقا ، لا أقصد شيئا و لكنك زوجتي أمام الله والناس .

- فكرتني ، يجب أن نخبر الشباب بالميدان .

- لا تغيري الموضوع ، لقد تعبنا ، و أعتقد أن مشوارا طويلا ينتظرنا ، فالأجدى أن نستمتع بحقوقنا لنواصل النضال .

ضحكت ساخرة : النضال ؟ هل تريد أن نذهب لعيادتك لنستطيع أن نكمل النضال ؟ لا تخادعني ، عمر أنا لا أفكر إلا في البلد .

- لا ، لا ، لا... لا تقولي لي هذا أرجوك ، لا تقولي لا وقت للحب يا زوجتي .

ضحكت.، رنت كلمة زوجتي في أذنيها فخفق قلبها و رددت في سرها : زوجته ! زوجته فعلا !

أردف حين لمح لينًا في ضحكتها الخجول : إن ما نفعله هنا هو أيضًا من باب الحب للبلد و لن يقول الناس و لا البلد ستقول : ها هما داليا و عمر يحبان بعضهما ، يا للخيانة يبيتان بجوار الميدان في عيادته ياللأوغاد ! ، هناك أزواج كثيرون في الميدان يعودون لبيوتهم ليلا فلمَ لا نكون مثلهم ؟ نحن أيضا متزوجان - ثم بعتب مفتعل - : هل نسيت ؟!

كانت قد غرقت في نوبة ضحك على طريقته المرحة ، وكان ضحكها بشير رضا ، كاد أن يلمس السماء فرحا و لم يعد يريد إلا أن يدفع الوقت دفعا .

سارا سويا متشابكة أيديهما بعد أن ترجلا من سيارته ، كانت ساهمة رأسها يطن ، سعيدة ، قلقة ، كأنها فتاة بكر ، كأنها لم تتزوج و لم تنجب

، كأن ما حدث لم يحدث لها ، بل حدث لأخرى ، يمر شريط حياتها أمامها ، كأنها حياة شخص آخر .

قلبها بدأ يدق بسرعة حين تتذكر ما حدث ، مخاوفها من الزواج ، شكها في أنوثتها ، تهز رأسها كأنها تنفض عنها الأفكار السلبية ، تطرحها بعيدا ، وعيناها شاخصتان للبعيد ، نظر لها بجانب عينيه ، أكسبها النضال رونقا جديدا و صار في رأسها ميلا و خيلاء يليقان بها ، شيء ما بها تغير ، انطلق ، فك قيوده .

عندما عادا للميدان بعد عقد قرانهما كان شيئا ما يغلف علاقتهما ، شيء جديد لم يعهداه ، نظراتهما ، ردود أفعالهما ، شيء لم يلحظه سوى الدكتور مصطفى ،

و مَنْ سوى عاشق ينازل قلبه منذ أكثر من عقد كامل ليتغاضى عن حبه و في كل مرة يفشل ، من سواه يرى بقلبه ؟!

- مصطفى : تزوجتما ، أليس كذلك ؟

- نظرت له داليا باستغراب : من أدراك ؟!

هز كتفيه بسخرية مريرة : لا أحد ، فقط عرفت ، تزوجته ، أعرفك ، كنت أعرف، عرفت من نظراتك له أنك ستتزوجينه يوما ، أعطيته تلك النظرة التي لم تعطها و لا حتى لزوجك الأول ، أعرف تلك النظرة ، لا أعرف غيرها بالأساس .

طأطأت رأسها في خجل ، كانت تعلم بحبه ، لكنها لم تكن من هؤلاء اللواتي يجارين أي قلب و لا تقبل التلاعب بالآخرين لمجرد إشباع غرورها الأنثوي كالكثيرات ، لم تكن و لم يكن هو من ذلك النوع الذي

يفرض نفسه ، اكتفى بوجوده جانبها ملاكا حارسا حتى دون أن تنتبه هي لتلك المصادفات التي كان يرتبها ، كمسألة عملها في المشفى الاستثماري معه ، كان هو من رشحها لقسم أمراض الفم و اللثة .

كان يتخذ من زمالتهما و صداقتهما درعا واقيا لكرامته و مبررا مقنعا لوجوده بجانبها ، ذلك الوجود الذي أبدا لم يستغله و أبدا لم تبحث هي وراءه خشية الاصطدام بتلك الحقيقة المؤلمة أنه يحبها و أنها تحبه كصديق ، كأخ تثق بوجوده دوما معها ، إلا أن هذا لم يمنعها من الزواج بغيره مرة .. و الثانية .

عندما ابتعدت متجهة نحو الخيمة خرج مينا متجها إليه و هو يتابع بعينيه داليا التي مرت من جانبه .

حين وصل إليه كان مصطفى شاردا يدخن النفس الأخير من سيجارته ثم أطفأها بقدميه .

تأمله مينا بحزن ثم سأله : مازلت تحبها ؟

تنهد مصطفى قائلًا : و كيف لا ؟ كيف لا أحبها و هي على هذا الشكل ، حتى أحبها بكل ما حولها من تفاصيل مؤلمة ، بكل عشاقها و ضحاياها و دراويشها .

مينا : لا أفهمك ، تحب حتى منافسيك على قلبها ؟

مصطفى : أحب كل ما يمت لها بصلة حتى أحب بيتها الذي زرته كثيرا حين كانت متورطة في زيجة قاتلة لزوج سادي ، و رغم ذلك لم يكن بإمكان الطبيعة أن تهبَها تلك التركيبة المميزة دون أن تضعَها في بيئة تناسب هذا اللون من النساء ، داليا عاشت في بيئة هادئة تخيم عليها

البساطةُ و الرقي الإنساني ذلك النوع من الرقي الذي لا تنتظر منه حدوثَ المعجزات لفرط هشاشته إلا أنها و يا للغرابةَ تحدث .

مينا : و لكنك رغم كل ما عرفته من ظروفها لم تهرب لحب آخر و لا لامرأة أخرى ظروفها أقل صعوبة أو حتى امرأة أنت رجلها الأول .

مصطفى : أحب هذه الروح المقاتلة فيها ، روح تخبو ثم تتوهج دون أن تتوقعها ، هي ابنة ماضيها المليء بالعثرات و حاضرها المليء بالتحديات و مستقبلها الغائم ، لون قائم بذاته لها طبيعة مصرية صرفة ذلك العناد الأنثوي الغريب الذي ينبتُ وسط النوائب في صبر و جلد ، عنادُ خجولُ لا يفصح عن نفسه إلا حين يجِد الجِد ، فهي حين تحب تضعف و تضعف حتى يصبح كسرَها هينا سهلا ، لكنها ما إن ترفع رأسَها وسط دمار عالمها حتى تقررَ أن تعيدَ بناءه بقوة و ثبات تحسد عليهما ، تسقط وسط أحزانِها و تفقد كلَ مقومات الحياة، تنهال على رأسها الجميل مصائبُ الزمن تمعن في إيلامها حتى يهمئ للرائي أنها خضعت و استسلمت للأقدار، ثم فجأة تدب الروحُ في أوصالها كطائر الفينيق حين يولد من رماد حريقِه ، يستيقظ تحت جلدِها الناعم ، يستنهض عزيمتها و كأن أرواح نساء كثر تناسخت من جيل إلى جيل حتى وصلن إليها فتلبسن بها و تشبثن بتلابيب روحها و استوطنّ فيها دون أن تدري و كأن العالم الذي نحيا فيه لا يكفيها فهي أكبرمنه لأنها أكثر حرية ، و كأن روحها تريد اتساعا أكبر و حرية أكثر فتهرب لعوالم أخرى تستبيح براحها لتتمدد فيها ، أحبها كما لن أحب مرة أخرى .

مينا : ربما يصورها لك الحب بهذا الشكل الحالم الذي تتحدث به.،

فالحب يرى ما يريد أن يراه ، ثم إنها تحب الآخر ، فابحث لك عن أخرى ، العمر يمضي .

مصطفى : أي عمر ذاك بعيدا عنها ؟ حتى لو تزوجتُ بأخرى ، لن أبتعد عن داليا ، تدري : إن أجمل ما فيها أنها لم تستغل يوما حبي لها و لم تشجعني إلا على صداقتها ، في وقت ما كنت أنا فيه فرصة ذهبية سانحة لها كشابة مطلقة و لديها طفل لكنها أبدا لم تكن تفكر كباقي الناس ، لم تستغل حبي لها ، لم تحاول أن تتودد إليَّ أو تجبر نفسها على حبي ،.لم تعاملني كفرصة ، سأقول لك شيئا غريبا: داليا تحبني ، تحبني بشكل ما ، ربما ليس بالمعنى الحرفي للحب ، ليس كحبها لعمر ، ربما كصديق ، كروح حائرة مثلها ، نتشابه من حيث لا ندري، و برغم علمي التام أنها الآن لرجل آخر إلا أنني لا أريد أن أتوقف عن حبها ؛ فهو الذي يجعل لحياتي طعما ، بل يهبني الحياة ، أنا متورط فيها و لا أريد أن أغير هذا ، داليا هي الوقود الذي يعطيني دفعة للعمل و العيش ، هي قصة عمري ، بدونها لن يكون لي قصة .

-- أهلا يا بدوي ، تمام ، متخافش عليَّ .. لا ، لا ، لا... يارجل كيف تقول هذا ، يا بدوي هؤلاء شباب شرفاء ، نعم ... يا أخي افهم ، نفعل هذا من أجلك ، من أجل كل المصريين ، فعلا ليس لدي مشاكل لكن هناك الكثير من الأوضاع الغلط ، لا تؤثر علي لكنها تؤثر عليك أنت يا حمار ، افهم ... يابني أقول لك إني أفعل هذا لأجل البلد و ناسها و ليس لضيقي و لا لمشاكل أواجهها ...فعلا ... سيبني على راحتي .... و الله علشانكم ،

غدا ستعرف و سيعرفون ... المهم هل نفذت ما طلبته منك ؟ طيب كويس ... لا شكرا .. شكرا .. قلت لك متقلقش ... سلام .

عمر : كان لا بد من أن ترينها منذ مدة ، ألححت عليك كثيرا لكي تزوريني فيها أو تشاركيني العمل بها ، لكنك كنت بخيلة شحيحة ، متكبرة ، ها أنت اليوم تزورينها كزوجة .

- وقفت أمام باب البناية العريقة ، قديمة و نظيفة ، و حين وطأت قدماها بهو الشقة هالها ما تراه ، لم يكن بهو عيادة طبية ، بل صالونا فسيحا به عدة صالونات أنيقة صغيرة تتناثر بها مناضد أنيقة هنا و هناك ، و بجانب الشرفة الواسعة أريكتان مريحتان لونهما متناغم مع باقي المكان و أمامهما جهاز تلفزيون ذو شاشة ضخمة ، و على الحائط ذي اللون الكريمي الفاتح تتناثر بذكاء أنيق لوحات زيتية فخمة تحتها أرضية من الخشب الباهظ الثمن ، تلفتت حولها مدهوشة ، التقط هو خيط الكلام للتفسير .

- لم تكن يوما عيادة بالمعنى المفهوم ، كان بيتنا قبل أن أولد ، ثم انتقلنا لفيللا مصر الجديدة و حول والدي هذه إلى عيادة ، كان جدي اشتراها في أوائل ستينيات القرن الماضي من أحفاد المالك اليوناني بخمسين ألف جنيه - بحسب الروايات ما يوازي ملايين بلغة هذا العصر - كان هذا المبلغ هو إرثه الذي وضعه بتلك الشقة أو هكذا أقنعه أخوه حماي أن إرثه فقط هو هذا المبلغ .

ثلاثمائة و خمسون مترا كانت صومعته ، بها مكتبه في الغرفة التي على يمينك ، تعالي .

- دخلت المكتب ، أنيق فخم بيضاوي كالذي يظهر في الأفلام القديمة بجانبه مكتبة عريقة و مقاعد فخمة و منضدة صغيرة تزخر بالصور ذات الأطر النحاسية المميزة ، اقتربت من الصور و التقطت بروازا صغيرا لسيدة جميلة تجلس مرفوعة الرأس بكتفين عاريتين بياضهما ناصع و شعر مصفف غزير وعينان مرسومتان بكحل عميق - همست لنفسها : يشبه الكحل الذي أضعه - ، عيناها ترسمهما كما أرسمهما ، و ترتدي ، سيدة الصورة - و هي راقية أرستقراطية بما لا يدع مجالا للشك - " جوب " من ستينيات القرن الماضي ، قصيرة و مزركشة بألوان عدة ، لها عينان لوزيتان تعرفهما جيدا ، ابتسمت و نظرت لعينيه شديدتي الشبه .

- نعم ..هي أمي.رحمها الله ، كانت في السنة الأولى للجامعة حين تزوجت أبي و التقط لها تلك الصورة.- رحمها الله -

تراجعت و عادت للبهو الفاخر أكمل متأملا المكان حوله :

- هذه ليست عيادتي ..إنها ملاذي ، أبيت فيها معظم الأوقات و يعتني بها " بدوي " الممرض هو الذي يشرف على كل شيء فيها.، مسكين على باب الله كمعظم المصريين و لا يعيش بالقاهرة ، أهله من الأرياف ، أعطيته إجازة مفتوحة أول أمس بعد أن ملأ الثلاجة بكل ما نريده ، الحمار مضايق لما يحدث تصوري ! لا أفهم هؤلاء الناس ، حقا لا أفهمهم ، تعالي لتري حجرة مكتبي .

- حجرته كانت بسيطة أنيقة مكتب عليه صورة لابنته و بعض المراجع و جهاز كمبيوتر محمول " لاب توب "، و في ركن منه باب جرار خلفه

سرير للكشف و جهاز أشعة .

حين وصلا لحجرة النوم توقفت فتوقف هو حيث وقفت في لفتة بها رجولة من لا يدفع بامرأة إلى الفراش ، بل يستدرجها بمحبة فتستجيب مقبلة دون ضغط ، و برغبة كاملة تعادل رغبته ، برغم خجلها الشديد لن ينتزع منها شيئا بل سيهبها ، ربما يهبها جسدا جديدا ستتعرف إليه معه و ستفاجأ بوجوده لأول مرة .

استطاع أن يلتقط حيرتها فقال لها :

- هل تعرفين ، كان حلما أن تري حجرتي تلك ، لعلمك كانت حجرتي مع أخي الأكبر في طفولتي ، لا تستغربي ما سترينه ، كان قلبي يشعر أنه في يوم ما أنك ستأتين لتلك الحجرة امرأة استولت على قلبي ، و صدق حدسي .

- لمح ارتباكها فأسرع يغير دفة الحديث ، لم يرد الضغط عليها ، فما زال قلبها في مرحلة " التليين " ، عليه أن يراوح من حين لآخر حتى لا يتوقف قلبها فجأة لشدة الارتباك و يعود أدراجه مرعوبا ، يعلم ما يفعله بها الآن ، و ما تستشعره من حرج ، يشفق عليها "، ثم يسحبها من غيمة الحرج التي لفتها .

- و هناك على اليمين حجرتان مغلقتان بجانبهما حمام خاص بهما ، أضع بهما بعض الأجهزة الطبية ، و هناك غرفة أخرى صغيرة بجانب المطبخ قرب باب الشقة و هي للخادم بها سرير و دولاب صغير ينام فيها بدوي في كثير من الأحيان ، و لها حمام صغير خاص بها يفتح من داخلها و باب يفضي لسلم جانبي سلم الخدامين ، نظرت له بعتاب

فاستدرك : أقصد سلم للعمال و البياعين .
كان الخجل قد تملك منها ، كلما اقتربت من الحجرة ، عادت و تراجعت كأنها تحوم حولها في وجل كمراهقة صغيرة في فيلم قديم ، تضرجت وجنتاها ، حين وجدت نفسها مرة أخرى أمام الحجرة ، و بينما هو يراقبها كان يزداد حبا ، الخجل هو ما يجعلها شهية أكثر مما هي في نظره ،هو ما يجعلها جديدة و متفردة .
انفتح الباب و وقفت على عتبته تنظر في إعجاب و فمها شبه مفتوح ، حجرة شديدة الاتساع على يمينها ركن أعلى قليلا بمستوى آخر للحجرة عليه أريكة مريحة مليئة بالمفارش و الوسائد الملونة المخملية لها درجات وردية و بنفسجية متدرجة بين اللون القاني و الفاتح..شكلها يوحي ببهجة و حياة و خلفها شباك كبير بطول الحائط مغلق بستائر شفافة رقيقة لها تموجات ليلكية تقترب من الأبيض وعلى شمال الحجرة كرسيان فاخران أمامهما منضدة صغيرة أنتيك خشبية رائعة عليها شمعة حمراء مضيئة و طبق به فاكهة طازجة و بجانبها باب صغير جرار ، اقترب ليفتحه ففوجئت بحجرة للملابس " دريسينج " بها مرآة طولية رأت انعكاسها فيها ، راقبت وجهها المذهول ثم جفلت ، كان أمامها مباشرة سرير بأعمدة نحاسية عليه ستائر بألوان باستيلية هادئة و على جانبي السرير منضدتان خشبيتان عريقتان عليهما مصباحان يشبهان " مصباح الجاز " القديم يشعان ضوءا هادئا ، كانت تحبس أنفاسها ، التفتت له متنهدة : هل هذه عيادة ؟ هل تعلم زوجتك بمحتويات تلك الشقة ؟

- نعم تعلم ، هي آخر ما تبقى لي ، كل ما فيها يخص والدي و والديه من قبله ، حتى هذا السرير يخص جدتي ، كنت أعلم كما قلت لك أن امرأة باذخة الجمال ستأتي هنا يوما إلى تلك الجنة الصغيرة الهادئة لتتربع على عرشها ، كنت محقا لكنك جئت أجمل من كل أحلامي .

- شعرت بدبيب نمل يسري بوجنتيها فانسحبت خارجة ، خرج وراءها : تعالِي ، تعالي أريك المطبخ ، شعرت به يعطيها طوقا آخر للنجاة من هذا الخجل الذي تتعثر فيه ، دخلت المطبخ ، كان مرتبا و نظيفا و واسعا بشكل مبالغ فيه له باب يفضي للسلم الجانبي ، أنيق و نظيف كأن امرأة ماهرة تعتني به ، فتح الثلاجة فوجدتها مملوءة بالطعام ، نظرت له مستفهمة .

- أعطي بدوي دوما ليملأها بالأصناف التي أحبها و يأخذ منها ما يشاء ، و قد فعل ، يا الهي ! هذا الغبي تخيلي يسب الشباب بالميدان و يقول عنهم خونة ! لا يصدق أننا نفعل هذا من أجله هو و باقي المطحونين ، إسمعي لا سياسة هذه الليلة ، ابتسمت بخجل : فين المياه المعدنية ، نسيها بدوي الغبي ! خمس دقائق أنزل للبواب يشتري لنا صندوق مياه ، عموما هذا بيتك يا حبيبتي ، استريحي لدقائق أو ربما تتوقين لحمام دافئ ، صدقي أو لا تصدقي كل شيء جاهز في انتظارك.ربما منذ عشرين عاما ، هزت رأسها ما بين الخوف من أن يتركها في شقة تطأها لأول مرة و بين رغبتها أن تنفرد بنفسها ، استدارت لتلقي نظرة على هذا البهو الفخم. ، كانت تتساءل : هل يجلس هنا المرضى ؟ لعلهم لفرط الرقي و الفخامة و الألوان المريحة للعينين قد يشفيهم الجو !

- تعمد هو أن يتركها لحالها تستجمع نفسها ، كان يعلم دون أن تحكي أن شيئا ما جرحها بشراسة ، وهي تحتاج لذلك أن تختلي بنفسها أن تهدهد روحها و مشاعرها ، أن تدلل نفسها قبل أن تهديها مرة أخرى لرجل آخر و قد أقسم على نفسه أن يشفيها من جراحها كما شفته هي بالحب .

كانت تحتاج بالفعل إلى حمام دافيء تغسل معه قلقها و توترها و يوم كامل وسط الشباب بالميدان ، توجهت للحمام ، ازداد ذهولها ، كأنه يعرف ما تفكر فيه ، كأنه رتب لكل شيء ، كيف عرف صابونها المفضل و عطورها الخاصة ، شموع هادئة على الرفوف و على حافة حوض الاستحمام معطر للماء برائحة الياسمين و إزار مخملي بلونه الليلكي المحبب لها .

حوض الاستحمام مملوء بالمياه الدافئة و برغوة الصابون المنعش يغريها أن تسلم جسدها له ، يا إلهي ! متى استعد و حضّر كل هذا ! ألوانها ، مقاساتها ، متى تسنّى له كل هذا و قد كانوا في غمار الثورة منذ أسبوع تقريبا .

غاصت بقدميها في حوض الاستحمام ثم انزلقت فيه تماما ، و أراحت رأسها على الحافة ، استسلمت لخدر لذيذ...لم تحصل على حمام مريح كهذا منذ بداية الثورة لم يكن لديها وقت لتدليل نفسها .

لم تكن تعرف هل ما يحدث حولها و لها طبيعي أم ضرب من الخيال ، هل تحدث المعجزات جميعها في وقت واحد ، هل ما تفعله صح أم خطأ ، ما الخطأ في زواجي بمن أحب ؟ ما الخطأ في أن يكون وطني كما أحب ،

ما الغريب أن أرفض أن أتزوج إلا ممن أشاء و لا يحكمني إلا من أشاء كيفما أشاء ؟!

عندما خرجت مبتلة الشعر مرتدية رداء المخمل الليلكي وجدته في الحجرة يجلس على الأريكة المميزة بهدوء ، أجابها دون أن تسأل :

- كنت تقتربين مني فأشم عطورك و أبحث عنها و أجدها و أعود للعيادة لأضعها هنا في انتظارك ، كنت ألاحظ ألوانك المفضلة و عرفت مقاساتك كلها لفرط ما نظرت إليك و تأملتك ، كل انحدارة ، انثناءة ، كل زاوية كانت تلفتني تم قياسها ، لم أكن أملك غيرك لأنشغل بتفاصيله و أقع في غرامها .

- حين دخلت الحجرة تعلقت عيناه بها ، كانت مبتلة كعصفور أغرقه المطر ، شعرها الأسود أكثر انسدالا بفعل الماء ، آثار الكحل مازالت تزين عينيها ، بقاياه أكثر تأثيرا من قوة لونه ، تسمرت في مكانها عندما اقتحمتها نظراته لم تدر إلى أين تذهب و لا كيف تختبىء من خجلها ، من عينيه الغارقتين في العشق .

و هذا المساء كان مميزاً حقاً حين اختبر بنفسه معنى الانجذاب بينهما ، إحساس نادراً ما يعيشه المرء و لو عاشه فلمرة واحدة و مع شخص واحد ، لا يتكرر إلا مرة كل عمر .

انسجام تام و تفاهم مادى و روحى لا يحتاج فيه أي طرف للكلام يتأمل التفاصيل فى صمت و إعجاب لفتاتها ، جيدها ، تلك الخصلات السود التى تشاكسه فتحجب عنه بعض التفاصيل ، يزيحها جانباً ، همهمتها كحمامة تهدل حبا و خجلا بين أحضانه أناملة تأبى أن تفارق خصلاتها

فيقبض عليها ، يطبع قبلة على جبينها وسط شلال يغمرها به من القبلات ، فتتعلق الخصلات بشفتيه تستبقيانهما تنهداتها حين تسرح للبعيد و هي بين ذراعيه ثم عودتها و قد ترقرقت عيناها بالدموع و وقوفها على حافة الأهداب منذرة بهطول حين يحتويها أكثركأنها تتذكر شيئا ما ، تناغمها بين الألم و السعادة كان غريبا ولافتا

كانا في عشقهما متمهلين ، كأنهما يتذوقان لا يُشبِعان جوعهما فحسب ، بل يستمتعان ، المتعة تفقد معناها إن أُخِذَت على عجل جرّاء حرمان ، كالإقبال على الطعام دون أن نتمهل و نتذوق طعمه أولا على شفتينا ثم اللسان ثم الفم ، كانا ذواقة في الحب .

لم يكن يقتحمها ، بل كان يطرق أبوابها طرقا متواصلا به إصرار و قوة ، يغوص في أعماق مشاعرها بمهارة مدهشة ، يفتش في أسرار جسدها و يفك شفرته بسلاسة و ذكاء ، استسلمت لما يغمرها به مبهورة بشهقة الخجل و الرغبة ، صارا كأرض و سماء متحدين ، كما كان الكون في بدء الخليقة ، حين كان المحيط و كانت الظلمة ، و كانت السماء في أحضان الأرض كانتا رتقا ثم انفصلا و ظل كل نصف يبحث عن نصفه الآخر ، ها هما يعودان لبعضهما البعض .

- حين انتهيا كان قد أدرك تماما أنه يحبها كما لم يحب رجل امرأة و أنهما وصلا لمرحلة الاكتمال التام. ، ذلك أنه ما زال يحبها و يشتهيها ، لم يستدر، و لم يبتعد فجأة كما اعتادت في حياة أخرى أو قل في ميتة أخرى..!.

لقد أدركا أننا نصل لمنتهى السعادة و الإنسانية حين يكون فعل الحب

فقط مع من نحب فقط لأننا نحب ، .

لم تكن أنوثتها كامنة في تكوينها و حسب ، بل في تعبيرها عن كونها امرأة ، إحساسها بأنوثتها عالٍ ، من أين لها بهذا كله ! من أين لها ببكارة المشاعر و ردود الأفعال ! كانت بالفعل بالنسبة له بكرا .

هو أول من فض بكارة مشاعرها ، أول من نال قلبها ، أول من راقص أحاسيسها ، كان هو الأول بالفعل رغم أنه الثاني .

لم يكن رجلها الأول سوى معول كسر الأرض و ملأها بالعثرات و الأخاديد ، معتقدا أنه بهذا لن يمشي أحد بعده في أرضها و لن يشرع كائن من كان في حرثها و زراعتها بعدما حرقها ثم غادرها .

سياسة حرق الأرض ليست فقط ذات بعد سياسي بل لها بعد و أصل عاطفي أو إنساني ، نعم يتوحش الإنسان حتى ليحرق أرضا لكي لا ينالها غريمه و يدمر إنسانا حتى لا يهنأ معه شخص آخر، كل سياسة دولية لها أصل عاطفي و كل حرب كانت حبا في بدايتها ، و كل فكرة انتقامية شرسة أصلها الإنسان .

لم يكن يدري أنه بحفره و أخاديده مهّد الطريق لعمر ، ليساوي هو بعده ، كل العثرات و يداوي تلك الأخاديد ، فتصبح أرضا سهلة منبسطة عامرة بالسخاء الذي اختبره معها الآن ، فيكون له السبق و أي سبق .

إنه آدمها وهى حواؤه ..

هجعت بداخله تكاد تخترق ضلوعه لفرط التصاقهما ، مستسلمة لهذه الحالة ، كانت مثله تشعر لأول مرة بأنوثتها برضائها عن نفسها و بأن

كل شيء فيها على ما يرام ، ليس كما اعتقدت يوما بل على العكس ، هي كائن خارق الإحساس و امرأة خارقة الأنوثة و ربما هذا هو ما أفزع زوجها الأول ، لم يستطع مجاراتها فشرع في هدمها .

كما شعر هو – عمر - برجولته بتمكنه من إسعادها بعد أن شعرت زوجته الأولى بهذه الرجولة فقررت كسرها لعجزها عن مجاراتها ، ماأشد الشبه بينهما !

و كانت رقتها و تعبيرها الأنثوي عن حبها يزيدها عطاءً و كان اشتياقه و ولعه بها و حرمانه الطويل خير دليل له في طريق الوصول إليها حتى صار الحب هو لغة جسديهما ، كأن الله حرمهما سويا و منحهما سويا ، و أي منحة ، أعظمها على الإطلاق .

استيقظ في اليوم التالي قبلها أراد أن يفاجئها بإفطار يليق بصباح الليلة الأولى في حياتهما معًا ، كانت نائمة نوما عميقا ، كما لم تنم قبلا .

تتمطى ببطىء قطة كسول و هو ينظر لها مبتسما حريصا على أن يتفرّس في وجهها و يدقق في تقاطيعه اللطيفة التي زادت بهاءا و إشراقا و لا يدري أبفعل الحب أم أنها بالفعل بهذا الجمال أو كأنها ازدادت جمالا ، كان يشعر بغبطة شديدة أن امرأة بجمالها أصبحت له ، لم يكن يفكر في شيء سوى تأملها ، حين فتحت عينيها فعاجلها بقبلة كادت تطول لتدخلهما في وصلة حب جديدة ، إلا انها انفلتت في دلال ، و قالت له : صباح الخير .

- ثم التفتت للطاولة التي رصّ عليها إبريق شاي و فنجانين و بعض قطع الكيك و المخبوزات ، كانت مبهورة بهذا الحنان الغامر .

- مملكة أنت ... أكملت جملته بحب و تدلل قائلة :
- مملكة أنا و ملك لا ينبغي لأحد من بعدك .
- فاجأته فصاحتها ، فأردف بانبهار : لن أنجو من طبيبة مثقفة متذوقة للشعر .
- و أنت ألا تتذوقه ؟
- أنا لاااا ، لدي ما هو أجمل و أحلى لأتذوقه .
- ابتسمت لتلميحاته ، حاول أن يحتويها بين ذراعيه لكنها جفلت .
أرادت أن تغير دفة الحديث لتلحقه قبل أن يتمادى ، كانت تعرف أنهما لو دخلا في دوامة حب أخرى فسينقضي اليوم بعيدا عن الميدان .
- اسمع الوقت يدهمنا و أنا نمت كثيرا لا بد و أن نرجع للميدان أشعر بجوع شديد و منظر الأكل زاد جوعي .

- التقط محاولتها للتملص فاستسلم .
- عموما أمامنا عمر بأكمله يا حبيبتي و أعذرك لأني قلق مثلك ، الشباب لم يتصلوا بالأمس و لا اليوم .

" زرقاء اليمامة "

- عندما عادا للميدان كان الوقت صباحا ، الحركة تدب في الميدان ، الشباب يخرجون من خيامهم لبدء يوم جديد ، الأعداد تزايدت بشكل غير مسبوق ، كان التاسع من فبراير ، حين دخلا خيمة الأطباء ليفاجئوا بوجود " مجاهد " جالسا معهم في الخيمة .

- مصطفى متكئا على جانب من الخيمة و بجانبه مينا ، ينفثان دخان سجائرهما بقلق صموت ، عينا مصطفى ساخرتان شاخصتان لسماء الخيمة بينما عينا مينا تنظران لباب الخيمة الذي تسمر عنده داليا و عمر .

- قام مجاهد لنا هاشا باشا ، احتضن عمر و هو ينظر لي بطرف عينه بينما كانت ذراعا عمر ثابتتان بموازاة جسده ، عقلي توقف عن العمل ، و كل الأسئلة تقف على مقدمة رأسي ، تمنعني من ترجمة ما أراه .

- دكتور عمر، دكتورة داليا ، يااااه شوف النصيب ، تفرقنا الدنيا و يجمعنا الميدان .

جذبني عمر بعيدا عنه و انزوينا بجانب الاثنين مينا و مصطفى ، جلسنا في صمت كأن على رؤوسنا الطير ، نتبادل نظرات الاستفهام مع مينا و مصطفى ، حاول هو أن يقطع الجو المتوتر ، فانبرى يوضح ، كأنما يريد أن ينهي المشهد و يثبت وضعا ما ، متفرغا لما لا نعلمه .

- أنا عارف إني كنت فاهمكم غلط و مكنتش متصور أبدا أد إيه أنتم أنقياء و قلبكم على البلد ، أنا فعلا غلطت في حقكم ، لكن الثورة

جمعتنا لأن كلنا في الآخر قلبنا على البلد ، أنا كنت يائس و الثورة هي اللي رجعت لي الأمل ، الشباب الرائع اللي واقف بره ، " شبابنا " ، علشان كده كان لازم أنضم لهم ، " ثورتنا " هتغير موازين العالم ، " إحنا " جبنا وجبات و ميه و عصير ، و كل يوم "هنعمل " كده لحد ما يرحل الطاغية ، مش "هنسيب " الميدان ، خطابه الأخير كان مهزلة ، لازم يرحل .

- كنا نتبادل النظرات و الوجوم الذي حاول هو أن يكسره بكلماته الجوفاء التي - على ما يبدو تم تلقينها له حديثا - إلا أن تواجده ملأ الجو باللزوجة المعهودة ، عكر صفو المكان .

مصطفى : يا دكتورة داليا دقايق لو سمحت .

قمت مسرعة ألبي طلب مصطفى و كأن دعوته ألقت لي طوق النجاة من الجلسة التي بدت بوجود مجاهد " موبوءة ".

كان عمر ينظر لي باستغراب على تفاعلي السريع مع طلب مصطفى و ما لبث أن التقطه مجاهد بسؤال خبيث التفت له بكامل عنقه : كويس إنك بقيت "مرافق" للدكتورة داليا في الميدان ، لاحظت إنكم جايين سوا ، برضه الأحوال بره الميدان تخوف .

نظر له عمر شذرا لتتحول نظرته لسكين يقطع لسان " ذكر الطريشة " الجالس أمامه ، و الطريشة هي ذلك الثعبان السميك القصير الذي يفح في الوجه و يغرس فيه نابيه اللذين يقطران سما ناقعا فيقتل في الحال ، لونه كلون الرمال ، يربض لضحيته ، يتكور على نفسه ليقفز ملتحما بها ملتهما وجهها بلسانه المشقوق ، هو ذكر الطريشة و طبعا أنثاها معروفة .

ابتلع الطريشة ثرثرته الحقيرة ، خوفا من " مود " سيء دخل فيه عمر و ساهم دخان سيجارته التي أنهاها توا ، في عدم تبين نواياه إن أكمل مجاهد كلامه الطري المغموس في " التلقيح والغمز واللمز" كنساء الطبقات الدنيا .

- مد مينا يده لعمر بسيجارة أخرى كانت في فمه ، دون أن يلتفت ، تناولها عمر و نحا بوجهه بعيدا عن المخلوق القميء الذي رمى الهلب في الخيمة .

خرجت مع مصطفى الذي تنحى بي جانبا بعيدا نسبيا عن خيمتنا ...

- إيه اللي جابه ده يا مصطفى ، عرف مكانا منين ، ده أكيد حد باعته !

- حد واحد بس ؟! فيه ميت جهة وراه ، ده أمنجي للمباحث طول عمره ، و كمان عين للدكتورة ، هي اللي باعتاه أكيد ، هو مبعوث كل الشياطين اللي بره الميدان بكل أنواعهم - ابن حرام مصفي -

- مصطفى أنا قلقانة الوقت بيعدي و واضح إنهم بيخترقوا الميدان .

- الميدان مخترق من أول يوم..مش دي المشكلة ، أنا هاكلمك في موضوع شخصي ، سكتُ أنتظر باقي كلامه ، مش عاوزك تقولي قدام مجاهد إنكم اتجوزتم .

- ليه ..هو احنا بنعمل حاجة غلط ؟ و لا هو وصي علينا ؟

- داليا إفهميني ، إحنا في فترة مش عارفين فيها العدو من الحبيب ، لو الكلام وصل للمستشفى أو لبيت الدكتور عمر ، الوضع هيتدهور ، أنا مش عاوزكم تتشتتوا ، كفاية إنكم أخدتم القرار بتسرع و البلد قايمة على رجل ، إحنا كده بنستنزف أعصابنا و في الآخرالقرار قرارك .

سكتُ أفكر ... كان دوما ذو وجهة نظر تحترم ، حتى لو اختلفت معه ، تتمنى أن تنصاع لرأيه لفرط صدقه و نصاعة رؤيته .

- حاضر يا مصطفى .

كان حزنه وعشقه باديا في عينيه اللتين يخفيهما عني و هو يتمتم :

- مش عاوز حاجة تعكر صفو سعادتك ، إنت منورة ، وشك بيضحك من غير ما تضحكي ، يعني سعيدة ، مش عاوز حد يحجب عني سعادتك ، إنت شفتي كتير ، من حقك تعيشي ، أشحنا بوجهينا نحو الميدان هربا من مشاعره التي ملأت الجو و ....

سكتنا و نحن نتأمل الميدان و قد زادت فيه حركة الحياة و البشر، كان نسيمه عليلا ، شمس فبراير الحانية تقبل رؤوس الكل ، و الناس يتبادلون الحديث و الحلقات تستدير لتكتمل .

- أنا هادخل أنادي عمر و إنت تكلميه، مش عاوزك تشفقي علي ، أنا كمان تزوجت و سعيد .

داليا : و قد خفق قلبها بشدة و اتسعت عيناها بذعر : تزوجت ؟!

مصطفى : نعم تزوجت هذه الجميلة الظالمة - ثم اشار بيديه لما حوله - تزوجت البلد مصرالتي تحب و تعذب و تأمر و تنهي و لا يسعنا إلا أن نموت فيها ، أحببتها ، ربما لأنها تشبهك كثيرًا بمتاعبك و ماضيك و حاضرك ، سبحان الله ! أنت مرض لا فكاك منه و قدر لا أريد له أن ينتهي ، أنت ..... توقف مصطفى ثم استدار مسرعا متجها للخيمة .

ابتسمت داليا بارتياح لم تعرف سببه ثم شخصت ببصرها

سرحت للبعيد ... ها أنا ذا أقف في قلب الوطن على جبين التاريخ ، أشعر أن هناك وراء الأكمة شيئا لا أفهمه ، لفرط نوائبي أصبحت أشم رائحة الخطر قبلها بعام ، كأني أصبحت زرقاء اليمامة ، كان الجميع متفائلين ، إلا أن قلبي كان يحدثني بما لا أستطيع أن أتفوه به ، لا أعرفه لكني أفهم بقلبي .

دورة التاريخ لا تنتهي بهذا الحلم ، اليوتوبيا الموجودة أمامنا مخترقة حد الثمالة ، كما قال أبي ، وها هو مصطفى يكرر نفس المعنى ، أخشى قراءاتي ، ليتني ما قرأت التاريخ ، ليتني ما عرفته ، كان الله بنا رحيما حين منع عنا استشفاف المستقبل ، و لكَم كان عادلا حين تركنا نذكر الماضي ، و لكَم كنت أنا قاسية مع نفسي ، حين أصررت على معرفته – المستقبل - من قراءة الماضي ، ماضيَّ و ماضي الوطن اللذين اشتبكا حتى ما عدت أفصل بينهما .

كل مأساة عشتُها صارت شبحا و كل كتاب قرأته صار عبئا ، صرت امرأة مفخخة أقتني الكتب و أعاشر الورق ، امرأة مشتعلة ملغومة متعِبة صعبة المِراس ، رجلها الأول حبر و ورقة تتمنى أن يتجسدا في لحم و دم.

صرت لا أنظر لظاهر الأمور ، لطالما اختلف الظاهر عن الباطن ، و أنا تلك المرأة لا ألدغ من جحر مرتين ، عذبني تاريخ قرأته عن بني جلدتي .

- ظلت سارحة مع أفكارها ، داهمها خوف مجهول ، كيف وقعت مرة أخرى في الحب ، لطالما أرادت يوما رجلا بلا ذاكرة عربية مهشمة ، رجلا لا يجيد لغة الضاد ، رجلا لا تسمع سوى عينيه ، ذلك أن الشرق أرض الرجال الممتلئين غطرسة و عقدا نفسية و جنسية ، حقيقة لم تستطع

الهـرب منهـا و لكنهـا وقعـت في غـرام هـذا الشـرق المعقـد المتغطـرس ، و لطالما فعلت و عمر، يا ترى ماذا يخبىء لها بعد أن تذهب سكرة الحب و تجىء الفكرة كما تقول أمي ماجدة .

- في طريق عودتهما ، كان القلق كرة سكواش يتبادلانها بقوة ، أصبح كل شيء فجأة مبهما و غامضا و ثقيلا ، نشوة الشعور بالقمة قمة الأحداث في العالم ، أن تكون قِبلة البشرية كلها ، لم تسكرهما في هذا اليوم .

- و ماذا بعد ؟

- لا أدري ... لا تسألني ... لكن قلبي غير مطمئن .

- قلت لك ألف مرة أنا بجانبك فاطمئني .

- نظرت له طويلا ، للرجل الحلم الذي أصبح حقيقة ، حقيقة قد تضيع لسبب أو لمئة سبب في الأقل .

- مجاهد بيتكلم كأنه صاحب الفرح ، يتكلم بصيغة جمع.إحنا ، عملنا ، سوينا ، شيء غريب .

- هو صادق ، فهو ليس وحده ، ألم تقرأ تاريخ الثورات ؟

- ييييه لم اقرأ ليس بعد ربما قدر علي أن أعيشها مباشرة بلا قراءة ، يكفيني أنت وسي مصطفى ، كلامكما يخرج من نفس الجعبة كأنكما اتفقتما عليه .

- طوبى لبالك المستريح .

- تقصدين أن جهلي نعمة !

- الجهل بالمستقبل فعلا نعمة .

- لدي فكرة عن المستقبل القريب القريب جدا ، تقول الفكرة إننا بعد دقيقتين سنكون في أحضان بعضنا البعض ، اقبضي على لحظات السعادة ، فلا أحد يدري ، قد تكون زادنا في فترة من فترات حياتنا ، قد أموت ، انقبض قلبها من كلماته .

-هل تسلل إليك خوفي أم أن عدوى قلقي امتدت إليك ؟

- لا يا حبيبتي أنا هنا لتقلقي فأطمئنك ، لكن بالفعل أصبحتُ لا أعرف ما تخبئه لنا الأيام و لا أحد يدري .

- نعم و الله لا أحد يدري .

أدار المفتاح بالباب بيد و بيده الأخرى يمسك يدها لا يريد أن يفلتها ، أدخلها و أغلق الباب من الداخل بالمفتاح ، نظرت له بقلق .

- لماذا أغلقته بالمفتاح من الداخل .

- كما قلت لك الوقت مخيف و الوضع لا يتحرك ، و لا أحد يدري - لمح غيمة القلق في عينيها فأراد أن يزيل تلك الغيمة التي تسبب هو فيها - لكني أنا أدري شيئا واحدا أنك اوحشتني ، أني أريدك الآن و فورا .

- طيب دقائق فقط ، أحتاج لحمام دافيء ، أريد بعض الماء ، تعرف أني أكره التراب .

- لا...لالالا ... ، أريدك هكذا ، أنا أحبك ، أريد أن أتذوقك بهذه الرائحة الترابية رائحة الميدان .

ابتسمت في استسلام..فأردف :
- صورك في الميدان رائعة سوف أجمعها كلها في ألبوم ، لن نعيش سوى ثورة واحدة و حب واحد فلنستمتع بما لا يمنحه القدر سوى مرة كل عُمْر .
أقبل نحوها فاضطربت ، مازالت تضطرب لاقترابه ، منذ عقد كامل ، لم يقترب منها رجل لهذه الدرجة ، قرب شفتيه من وجهها ، مر على صفحة وجهها و جيدها كله بأنفاسه ، شعرت بها دافئة مدموغة بتبغ تعشق رائحته ، أحاط خصرها بذراعيه و ضمها ضما شديدا و حين وصل لشفتيها ، غابا في قبلة طويلة ، شعر بجسدها يرتجف مشتعلا بقبلته .
صارت سريعة الاشتعال بعد أن أيقظ أنوثتها من سباتها و صار هو متقدا بمنحنياتها الشاهقة ، انحنى قليلا ليرفعها بمحاذاته ، كدمية حملها متواجهين إلى غرفتهما و شفتاه تقبضان على شفتيها لا تريدان أن تغيبا لحظة دون ارتشافها ، أي جحيم استوى في نيرانه قبل أن يمتلكها، الامتلاك في شريعته هو الحب ، لم يكن يعرف هذا في نفسه إلا حين قابلها ، اكتشف أنانيته ، هل حقا أن الحب أنانية ؟ شيء آخر كان يراوده وهي بين أحضانه..كأنه يريد أن يأخذها قبل أن يأخذها المجهول..أن يضع بصماته على قلبها و جسدها بحيث لا تنساه بحيث يراه فيها -ذلك المجهول - ، ترى هل خلق منه الحب شخصا أنانيا شريرا يريد أن يأخذ فلا يُبقي لغيره ؟ و هل سيكون هناك غيره ؟ طرد الفكرة التي نغصت عليه لحظات سعادته .

كان يسابق الزمن يحاول أن يرتوي منها أن يشبع حبه ، أن يهبها امتلاء لا يترك لغيره مكانا ، كان يريد أن يشبع روحها و جسدها حد التخمة فلا يجد آخر فراغا ليحل فيه ، ظل يتعجب مما يشعر به ، أي آخر هذا الذي يقض مضجعه ، أمازال يخشى أن تتبخر من بين يديه ، أن يخطفها منه قدر ضنين ، أو شخص ما في أفق غامض ، لم يكن يأمن الأيام ، استعاد خوفه لأول مرة منذ امتلكها ، دون أن يعرف ما السبب ، و لماذا في تلك اللحظة بالذات ، فجأة ملأته مخاوفه بعنف محموم ، كان يلتهمها كأنه ينتقم ليس فقط مما مضى ولكن مما قد يأتي ، كانت في وسط دوامة حبهما تتأمله ، تستغرب نهمه ، و كان يتوقف بين حضن و آخر ليتفرس في وجهها ، طغى شعوره بخوف غريب على اشتهائه حتى اختلط به فصار عنيفا كأنه يصارع المجهول .

هل يعرفنّ أحد كيف تكون ممارسة الحب مع رجل جريح غاضب معذب بالأفكار ، مسكون بالأشباح ، كانت تغرق في موجاته ، تتلاحق أنفاسها ، تقاوم الغرق في دواماته المجنونة ، كإعصار جامح ، و قد استشعرت خوفه أو شجونه ،

حين انتهيا كانت قد تكومت كهِرّة مختبئة في صدره لم يزدها عنفه إلا رقة و شفقة ، كأنها فطنت لما يعذبه من ظنون ، لم يتركها، ظل قابضا على خصرها ، فدفنت وجهها في عنقه ، شعر بدفء أنفاسها فهدأت براكينه ، و لو لحين .

على فراشهما غفت على صدره ، في حين كان هو يدخن سيجارا ينظر للدخان حينا و لها حينا و في قلبه تتصارع الأفكار .

حين جاء صباح الحادي عشر من فبراير كانا في الميدان ، و قد استعرت الجموع و استبد القلق بالمتظاهرين ، بل بالعالم كله ، و تخلى الحلفاء الغربيون عن الأسد العجوز الذي ملّه شعبه .

في ذلك اليوم كان مينا ومصطفى اتفقا على التوجه مع جموع من المتظاهرين للاعتصام عند القصر الجمهوري إلا أنهم عادوا عند الظهيرة من مهمة لم يعرف أحد كنهها ، اقترب مني مصطفى و جلس بجانبي و تنحى مينا بعمر جانبا .

- رجعتوا ليه ، كنتم فين يا مصطفى ؟

- داليا اسمعيني الدبابات وشها اتوجه ناحية القصر و فيه ضابط راح التلفزيون

- ضابط راح التلفزيون ؟

- أيوة يعني فيه بيان من الجيش ، إنت عارفة ده معناه إيه .

- هيمشي ؟ هيرحل ، صح ؟

- أيوة ...

لمعت عيني بفرحة و هرعنا إلى قهوة بها تلفزيون و تسمرنا جموعا غفيرة أمام الشاشات ، و قد حبس العالم أنفاسه .

بحلول مغرب هذا اليوم كان بيان التنحي قد أذيع ...

حملني عمر ودار بي ، قبلني أمام الناس قبلة طويلة ، لم نكن يوما فرحين مثل هذا اليوم ، بكاء و أغان ، نصافح بعضنا بعضا.

بتنا بالميدان و في الصباح الباكر كنا نجمع القمامة و نكنس الشوارع و نسلم على بعضنا البعض .

صافحت مصطفى و مينا الذي سار مع مارينا ليوصلها للبيت على وعد بلقاء ، في حين نظر إليَّ مصطفى طويلا رافعا يده بمحاذاة جبينه كأنه يؤدي لي التحية العسكرية ثم استدار سائرا في طريقه يصفر سعيدا ، ما لفتني للحظات أنه كان يدندن أغنية لمعشوقه الأول محمد منير تقول " إيه يا بلاد يا غريبة عدوة و لا حبيبة "، استغربت معنى الاغنية ، تساءلتُ في نفسي : أما زلت تخشاها يا مصطفى ؟؟ تخشى مصر كما تخشاني ؟

- كان مصطفى يعاني من فورة عشق تماما مثلها هي و عمر ، ثمانية عشر يوما غرق فيها في وصلة حب للوطن ، كان الموسم موسم العشق و الثورة ، و ها هو يستفيق من تلك الفورة و هو مذهول غير متأكد مما ستؤول إليه هذه الحالة المتفردة من الحب المجنون ، مصطفى لم يكن سوى عاشق تذوق الحب لأول مرة فلم ينج منه و لم يعبأ مطلقا بنتيجته ، إنه يحب و كفى ، يثور وكفى .

استدرت أكمل ما بدأته مع عمر ، و أنفض عن رأسي هواجس مبهمة ، قد تقض مضجع سعادتنا .

سرنا في الطريق نشير للدبابات التي ملأت الشوارع بعلامة النصر ، و قمنا بالتقاط صور بجانبها ، رفعني عمر على إحداها والتقط لي صورة بين الجنود .

حين انتهينا سرنا أنا و عمر و أناي تمشي بجانبي ، تدندن بما لا أسمعه ، في طريقنا للبيت العيادة يمسك بيدي ، الفرحة كانت أكبر من كل الكلمات ، كان طريقنا مفعم بصمت صاخب بالفرح نتبادل الابتسامات

مع المارة والمحال تصخب بالأغاني الوطنية .
أرحت رأسي على حافة حوض الاستحمام.. في حين كان عمر يجلس بجانبي يدلك رأسي
- هل تصدقين أني معك هنا .. أحممك ... ألمسك .. أراك عارية بهذا الجمال ..هل تصدقين كل ما حدث في أسبوعين .. هل تصدقين أنك في بيتي .. في حضني ... هل نحن في مصر ، ترى كيف هي الشوارع الآن ، و كيف هي مصر بعد عام أو عامين ؟!
- فتحت عيني ثملة بنشوة تثقل رأسي فهوى بشفتيه يقبلني .
- وقفت أمامه كطفلة تنتظر جائزتها ، وضع " روب " الحمام علي كتفي و لفني به ثم حملني كدمية بين يديه ، لم أسأله ماذا تفعل ، كنت مستسلمة تماما لهذه الحالة من الخدر و أعرف حقا أنه يحقق أحلاما راودته كثيرا في نومه و يقظته ، راودتني أنا أيضا في حقيقة الأمر وكان هذا هو وقتها لكي تتحقق جميعها في آن واحد .
في نشوة النصر يكون للحب طعم آخر ، تكون النشوة كالسحاب يأخذك على غيمته لعنان السماء ، و هكذا كان لقائي بعمر في صباح هذا اليوم ، حتى مشاعرنا اختلفت ، هذا الحزن الذي داهمه في لقائنا الأخير ، حين كان صمته مشبوبا بالرغبة و الغضب ، استحال سعادة رسمت على وجهه ابتسامة لا تفتر حتى أن همساته لي كانت غمغمة ، لا تقول شيئا سوى أنا أحبك ، صرنا جسدا واحدا لا حدود بيننا.، داهمتني نغماته و ذبذبات روحه و جسده فالتقطتها و بدأت أشاركه ،

نعزف لحنا ثنائيا ، لم نتدرب عليه قبلا بل لقنته لنا الطبيعة طبيعة الحرمان طبيعة الانتصار .

رحنا في غفوة عميقة ، أودعنا فيها إرهاق ثمانية عشر يوما من الغضب المحموم ، غفوة جعلتنا لم نستمع لطرق رتيب على الباب ، حتى رن جرس المحمول الخاص بعمر و النائم بجوارنا على " الكومود "، تتابعت الطرقات متزامنة مع رنين المحمول ، فاستيقظنا بفزع ننظر لبعضنا بعضا ، جذب رأسي لصدره و هو يهدئُني : لا تخافي ربما بدوي أو أي بائع ، التقط المحمول و نظر لشاشته ، حين اتسعت حدقتاه .

- دي راجية ...غريبة.. يمكن رجعت من السفر ، لن أرد عليها ، سأتصل بها لاحقا ، أغلق جهازه ، غادرت الفراش متجهة إلى الحمام حين كان هو يمد خطواته لإسكات رنين جرس الباب المتواصل ، لا أدري ما حدث لأني دخلت الحمام و نسيت الدنيا .

استمتعت بحمام دافىء لكنّ شيئا ما جعلني أستفيق من تلك السعادة المبللة بالماء و " الشامبوو "، أسرعت أنهي حمامي و قد تذكرت الطرق المتسارع على الباب ، و حين خرجت سمعت همسا محتدا بين شخصين ، عمر و صوت نسائي أجش ، لم أتبين جيدا ، سارعت لارتداء روب و خرجت لأعرف ما الذي يحدث بالخارج ، فتحت فمي مأخوذة بمشهد سينمائي بامتياز ، راجية تجلس أمامي في إحدى الزوايا تنفث سيجارة في هدوء غير مريح ، و أمامها يجلس عمر و رأسه بين يديه و دخان سيجارتها ملبد بكراهية و خطر .

نظرت لي ببرود وقالت ساخرة :

- اقعدي يا عروسة .. نعيما ، مش عروسة برده و للا ضاربين ورقة عرفي و للا بدون ورق محبة كده ؟

- ابتلعت ريقي و تمالكت نفسي قائلة بهدوء أحسد نفسي عليه :

- أنا زوجته شرعا ، ثم جلست و قد شعرت أن ركبتيّ لا تحملاني فعلا .

فتحت عينيها باندهاش و لمحت ومضة جنون مرت بها ذكرتني بنادر ، غمغمت : حرامية وقحة ، كانت تنفث دخانها ببرود لا يليق بامرأة اكتشفت زواج زوجها بأخرى ، تكاد تكون ضبطتنا إلا أنها غير متفاجئة إطلاقا ، بسرعة رتبت أفكاري و لكن حين نظرت ليدها ، كانت هناك سيجارة بين أصابعها و باليد الأخرى جهاز التحكم عن بعد " الريموت ".

رفع عمر رأسه بحزن ثم ربت على ركبتي .. سألته بشك :

- هل فاتني شيء ؟

- ردت : الكثير .. فاتك الكثير يا عزيزتي ، كنا نشاهد سويا أنا و زوجي - عفوا أنا وزوجنا - فيلم " سكس " إنما إيه يجنن .. تحبي تتفرجي .. صدقيني هيعجبك أوي لأنه بطولتك يا دكتورة .

- بذهول : أنا ؟؟! اخرسي .

- تاني ؟ بتقلّي أدبك تاني ؟ مش كفاية إنك حرامية رجاله ؟

- ما تتكلم يا عمر فيه إيه ؟؟؟

- ما تتكلم يا عمر ، احكيلها ، و لا أقولك أحكيلها أنا ، خلاص يا ماما راحت السّكْرة و جت الفكرة زي ما بيقولوا ، المولد انفض ، بيتك بيتك

، أديكي انبسطتي لك يومين ، بس إوعي تفتكري إن فيه حاجة هتتغير و لا هتقدري تاخدي مني حاجة

- عش الحب بتاعكم ده أنا مصوراكم فيه ، بدوي الله يبارك له ساعدني كتير الحقيقة و هو بيوضب لكم البيت ، حط الكاميرا في أوضتكم بحرفنة و كان سعيد جدا إنه بيساعدني أجهز عليكم هههه بدوي اللي طول عمرك بتساعده و كنت أنا باتخانق معاك ، كان معاكم خطوة بخطوة ، كأن بينك و بينه تار ، من ساعة الثورة هههههه و هو بيتبرع بمساعدتي ، بيراقبكم كرها في الثورة اللي قامت علشان اللي زيه ، مش قلتوا له كده برده ؟ تحبي تشوفي نفسك في حضن الدكتور المحترم ؟ و للا تحبي تشوفي الفيلم كله على الانترنت و الفيس بوك و الحاجات اللي عملتكم أبطال من ورق ورق تواليت هنستخدمه احنا .

- ضحكَت بجنون ، نظرت لي و أنا واجمة و عمر مطرق للأرض ضغطت على زر التشغيل و رأيت نفسي أنا و عمر فصرخت صرخة مكتومة و وضعت يدي على فمي و راحت دموعي تنساب صامتة و رأسي مطأطئ للأرض .

- بس ، بس يا صغنونة ، شوفي ، عمر و أنت قدامكم فرصة عمركم ، هو يسافر قطر أو الإمارات و أنا مراته " الوحيدة " معاه ، نعيش هناك لحد الأمور ما ترجع لطبيعتها و الوَش ده يخلص و هيخلص أسرع مما تتخيلوا على فكرة ، و إنت تنسي تماما اللي حصل ، اعتبريه حلمْ جميلْ بس مجرد حلم ، وهتستلمي ورقة طلاقك و ترجعي لابنك و أبيكِ دكتور الجامعة اللي مالوش غيرك و يا دار ما دخلك شر .

أو .. تنشفي دماغك إنت وحبيبك الدكتور عمر و ساعتها بقى هتبقى فضيحتك بجلاجل و الفيديو بتاعكم هيعمل أعلى نسبة مشاهدة زي الرقاصة الشهيرة و رجل الأعمال إياهم اللي الفيديو بتاعهم كسر الدنيا ، بس الفيديوده هيبقى السسبنس فيه أقوى و أعلى ، الثائرة العظيمة الدكتورة الشاطرة اللي يا ما عالجت مشاهير علاجات تجميلية تظهر في مشاهد مخلة ، العالم كله بدون مبالغة هيتفرج على المناضلة الكبيرة و هي بتناضل على السرير ، بصراحة أنا حسدتك ، إجادة بتقول إنك دكتورة في حاجات كتير ، حتى عمر ربنا نفخ في صورته معاكِ هههههههه ، بس طبعا في الفيديو هاقطع راس الدكتور عمر و هاسيب راسك أنت في الوحل أو ممكن أحط ألف راس تانية ، كل لقطة براس شكل و احلفي بقى إنهم متفبركين ، و حتى لو أثبتِ الفبركة اسمك هيبقى زي الطبل و ابنك مستقبله هيضيع و أبوكي هتتحط راسه في الوحل ، هيبقى الإقامة الجبرية ليه نعمة ، هامسحك بأستيكة ، هتتمني الموت و مش هتلاقيه ، و أبو ابنك هياخده منك بالمحكمة بسهولة بعد ما يثبت إنك غير أمينة عليه ، أم منحلة ، و عمرك ما هتشوفي ابنك تاني ، ده غير بقى إنك بقيتي أيقونة الثورة المباركة ، شوفي بقى هيتقال إيه عن التحرير اللي أصلا من دلوقت بيتكلموا في أعراض بناته ، إنت مثال حي لما كان يحدث في التحرير، حتى رغم جوازكم الشرعي ده .

- صرخت مستغيثة : عمر ؟

- نظر لها بحزن ثم التفت لي ببصر زائغ و تمتم : القرار قرارك لو عاوزة ننهي الموضوع علشان ابنك و والدك ها تفَهّم موقفك .

- نظرت له بذهول : كنت فاكرة إن الموضوع ما فيهوش اختيارات .

- قال بتسليم اليائس : فكري كويس يا داليا قبل أي قرار ، اللي على المحك مش أنا و انت لوحدنا ، أنا مش هتضرر .. علشان كده مينفعش آخد قرار .

- إنت فعلا خدت القرار .

- مش حقيقي .. أنا مش قادر أفكر ... مش مصدق الخيانة ..

صرخت راجية : خيانة ؟ أنت بتتكلم عن الخيانة ؟ خيانة مين لمين ؟ مين اللي خان ؟ أنا و لا إنت ؟

- خيانتك إنتِ ، لو فكرت كويس هتلاقي إنت الخاينة لأسباب كتير آخرها إنك تسجلي لجوزك ، و تستخدمي شخص غريب يصورني في أوضة نومي و تهدديني - حد قالك تتجوز عليا ؟

- إنت .. أيوة انت قلت لي ألف مرة ، أظن إنت فاهمة كويس .

- صرخت داليا : بس .. بس إنتم الاتنين ، معتقدش إن ده وقت تتعاتبوا فيه ، و أنا واقفة بينكم .

- فعلا يا دكتورة إنت واقفة بينا ، إنت اللي خاينة سرقتِ راجل مش بتاعك .

- عمري ما كنت بتاعك و انت عارفة و لا عمرك خليتيني و كنت متأكدة إن فيه يوم هلاقي حد يحبني و أعتقد إنك عملتِ حسابك لليوم ده

كويس ، و أمنتِ نفسك . و أنا ساعدتك لأني كنت عارف إن من حقك تأمني نفسك ، إديتك اللي انت عاوزاه " الفلوس ".

- ضحكت ضحكة طويلة و قالت و قد اقتربت برأسها للأمام : طب أقوللكم على سر لوكنت اتجوزت أي ست تانية مكانش يهمني لكن دي لأ ، أنا عارفة اللي بينكم من شهور ، الدكتورة ثريا و مجاهد بتاعها كانوا معايا أول بأول ، إنت ناسي إني مشاركاهم في كام مشروع طبي ؟ ثم قامت تتمشى في المكان و تتفحصه و يا سلام بقى لما الفيديو ده يروح للدكتورة ثريا و منها لأمن الدولة لباباكِ الدكتور اللي عامل فيها عالم و سايب بنته على حل شعرها ، " الله عالفضايح "

- الدكتورة ثريا ، و أمن الدولة ؟ آه .. كان لازم أربط بينكم من زمان بس للأسف فعلا اللي عملتوه لايق على الناس اللي اتكلمت باسمهم أنا برده مكنتش مصدق إن كل ده علشاني و بس ثريا دي كانت .

- عارفة ، إنتم مساكين فاكرين إن فيه أجهزة اتفككت و نظام وقع و الدنيا هتبقى وردي إحنا بنفكك علشان نعيد تركيب على مية بيضا ، فاهمني ؟ و لعلمك لو كنت اتجوزت ثريا مكنتش هتضايق ، دي زيي بالضبط عاوزة مصلحتها بس طفسة شوية في موضوع الرجاله و عنيها زايغة ، الكل عارف ، و انت اتجوزتني مصلحة زي ما كنت هتتجوزها مصلحة ، و لونها زينا يا عمر افهم ، و مصالحنا متشابكة لكن دي لأ ، داليا لأ ، دي اللي كانت عقبة في طريقنا ، عقبة و شيلناها ، و أنت مشوفتش للأسف السكينة كانت سارقاك ، مكنتش شايف غيرها ، اتعميت عن الخية اللي اتنصبت لكم ، افتكرتم إنكم حدقين

و هتقدروا علينا ، معلش ، و لعلمك لسه اللعب "سوفت" ، اللعب الخشن لسه مجاش و بلاش تستفزنا ، ثم تنهدت بعمق : اسمعوا أنا هاسيبكم شوية تفكروا ، ثم أشارت لعمر : اخرج من ذهولك بسرعة و حاول توعيها ، ثم التقطت حقيبتها هاسيب لكم نسخة هنا تتسلوا بيها شوية يمكن تحطي عقلك في راسك بعد ما تشوفيها كاملة .

- مكنتش متخيل إنك كلبة فلوس للدرجة دي ، بتضحي بأي حاجة و بتبيعي حتى جوزك قدام البيزنس .

- بدون قلة أدب ، إنت آخر واحد يتكلم عن الطمع و البيع ، انت بعت نفسك ليّ قبل كده ، أنا مشيت بقوانينك ، فاكرها و لاّ مصدق إن الثورة طهرتك - أطلقت ضحكة شرسة – و انت يا دكتورة. مصدقة إنك مش حرامية ، مش سارقة.، إنه يا عيني كان تعيس و إنت انتشلتيه من مأساته ؟ أحب أقول لكم إنتم الاتنين إنكم شاركتوني ، إحنا كلنا شركاء في اللى وصلناله و اللي هانوصل له ، محدش بقى يعيش دور القديس ، مش لايق عليكم .

رفعت داليا رأسها و قد أيقنت أنها كانت طعما لاصطياد والدها و حبيبها و لاصطياد الثورة بأكملها ، مجرد طعم ، و لكنها قالت بهدوء :

- لا.. مينفعش تساوينا بكِ ، أنا مش زيك يا مدام راجية ، و لا عمري هاكون زيك ، و طالما فاكرة إنك ممكن تلوثينا باتفاق زي ده ، لأ بقى ، أنا موافقة إنك تنشري الفيديو و هاقاوم ، و هاثبت إنك إنت اللي مجرمة و شوفي شكلك هيبقى إيه لما يتعرف إن جوزك اتجوز عليك و إنك سجلتِ له علشان تضغطي عليه و يطلقني ، كلمتك قصاد كلمتي

، و عقد جوازنا قدام الكل قدام فيديوهاتك ، هيقول اللي عمر عمره ما قاله ، ثم و بنظرة محبطة لعمر : مش علشان متمسكة بعمر، حتى لو طلقني أنا مش مكسوفة من أي حاجة عملتها ، إحنا اتجوزنا في الميدان و الكل كان شاهد ، متجوزناش بصفقة ، أنا مشتريتش راجل زيك ، لكن هاشتري بلدي . هاشتري الثورة دي ، هاخلي عمر يطلقني ، بالعكس أنا اللي هابقى مصرة على الطلاق مش خوف منك ، إنت بعد طلاقي ممكن تنشري الفيديوهات ، دي طريقتك - الخيانة - لكن هاعمل كده لأن مقدرش أسرق فرحة الشباب ، مينفعش بعد اللي وصلناله يصحوا على ضربة زي دي .

كانت عيناي زائغة بعد قراري ثم انهرت على الكرسي ، حين اقترب مني عمر هو يهزني و كأنه كان تحت تأثير كلامها و تهديدها كالمنوم مغناطيسيا ، كأن كلامي أيقظه ، فك طلسمها الذي ألقته علينا كساحرة ملعونة .

أمسك بكتفي بحدة قائلا : لا تصدقيها ...لالالا يا داليا ، خلاص ، لقد عدلت عن رأيي ، سأحارب معك ، سنحاربهم جميعا ، لن أتركك لقوانينهم ، سنتحمل سويا نتائج ما اخترناه و حلمنا به ، ردي عليّ قولي إنك هتفضلي جنبي .

كنت قد هويت في بئر صمت سحيقة ، أسمع صوته يرن في أعماقي فلا تستجيب له خلجة واحدة مني .

- راجية : أعتقد أن الموضوع أكبر منك و منه ، لن أنكر إن جزءا مني مشفق عليكِ رغم كرهي لك ، و لكني استغربت لأن الكل كان يطلب

رقبتك - جهات خارجية –هامسة : أعتقد أنهم في أثر والدك ، ترى هل هو جاسوس مزدوج يخشون اعترافاته ؟ أم أن في يده وثائق لا ينبغي نشرها - بتنهيدة - : انصحيه أن يستسلم كما استسلمت أنت ، لمصلحته و مصلحتك ، هذا تخميني ، لا أدري و لكنك مطلوبة ، هذا الفيديو عمل الكثيرون لكي يحصلوا عليه.، ما أقوله و ثقي فيّ يا عزيزتي : أنكم ستستيقظون على ضربات موجعة ليست ضربة واحدة .. ربما ليس الآن ...

البلد معدتها تؤلمها بعد الثورة التي تشبه الشَرْبة الثقيلة ، مصر كبيرة ، ربما سنوات لترون ما ستؤول إليه ثورتكم ، أما الآن فسوف تتقيأ البلد ما لا تتخيليه ، حاجات كتيرة مقرفة ، و ستكتشفي أن أقرب الناس سيغير حساباته و أنك لست متأكدة إن كان صح أم خطأ ذلك الذي حدث ، صدقيني أنت لا تعرفين شيئا و لا حتى هو ، في وقت من الأوقات أشفقت عليكم ، مغيبين انضحك عليكم من جهات كتيرة أكتر مما تتخيلون ، أنتم رغم كل شيء من عامة الناس لا تجلسون مع الصفوة من الوزراء و رجال الأعمال مثلي ، لا تفهمون طريقتهم في الإدارة ، تجهلون ما ينتوون فعله .

و عمر .. حتى عمر مجرد دكتور ناجح عايش في برج عاجي ، اسألوني أنا ، قابلوني بعد سنة أو أقل من سنة حين تكتشفون أن مجارير الوطن تعرّت ، و سيخرج الصراصير الذين قادوا تلك الثورة من تدريبات و كورسات في شرق أوروبا و أمريكا و ستعتقدون أنهم فراشات حتى يسلبوكم ما حاربتم لأجله ، ثم ينقلبوا عليكم ، و سنعود و سيعود

الديناصورات أكثر شراسة ، لست أهذي كما تتخيلون ، و كما تعرفون لست محللة سياسية و لكني صاحبة مؤسسات و أعرف كيف تقام المؤسسات و كيف قد نتركها تنهار إذا عشش فيها الغربان ، كيف نحرقها لنعيد بنائها مرة أخرى بطريقتنا القديمة و بقوانيننا المخضرمة و بلاعبين جدد . لكنهم يمشون على نهجنا مهما تنكروا له في البداية .
سيلعبون بطريقتنا التي لا تبلى ليتأكد الناس أنه لا مفر من اللعب على كيفنا ، و بدون خسائر تذكر ، قد نترك المنتصر أو الذي يعتقد أنه انتصر ليحارب شريكه في النصر فيتقاتلا و يقتتلا لينهار الاثنان ونبقى نحن ، نحن فقط .
أنهت راجية كلماتها ثم مضت باتجاه الباب ، صفعته بعنف تاركة وراءها شبحين غارقين في صمتهما .

" نحن فقط من نستطيع تقييم خساراتنا الفادحة وآثامنا التي لن ثُغتفَر حتى نعترف بها لأنفسنا "